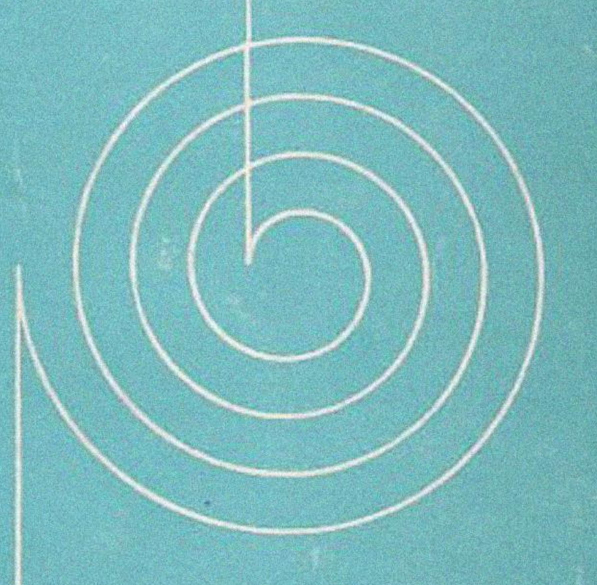
ويلهلم رايش

ما الوعي الطبقي؟

نحو علم نفس سياسي للجماهير



ترجمة

جورج طرابيشي



دار الطليعة - بيروت

ما الوعي الطبقي ؟

نحو علم نفس سياسي للجماهير

بيروت – ص ب ١١١٨١٣

الطبعة الاولى
تموز (يوليو) ١٩٧٤

الطبعة الثانية
شباط (فبراير) ١٩٧٩

ويلهلم رايش

ما الوعي الطبقي؟

نحو علم نفس سياسي للجماهير

ترجمة

جورج طرابيشي

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

هذه الترجمة الكاملة لكتاب :

Qu'est - Ce Que
La Conscience De Classe
Par
Wilhelm Reich

تقديم

بالرغم من ان هذا الكراس محاولة للاجابة على سؤال نظري محدد : **ما الوعي الطبقي** ؟ فان هدفه عملي في المقام الاول : ما السبيل الى الحيلولة دون السقوط في الشيخوخة السياسية ، عرقوب اخيل كل حركة ثورية ؟

لقد كتب رايش هذا الكراس واصدره باسم مستعار ، ارنست باريل ، في عام ١٩٣٤ ، اي في العام التالي للعام الذي صار فيه هتلر مستشارا للدولة الالمانية وتم فيه تكريس هزيمة الحركة الاشتراكية الالمانية . والكراس ، من منظور هذه الهزيمة ، محاولة للاسهام في بعث الحركة الثورية التي عرف النازيون يومئذ كيف يقصمون ظهرها .

واذا كانت نقطة الانطلاق المركزية في هذا الكراس التمييز بين الوعي الطبقي للقادة والوعي (او الشعور) الطبقي للجماهير ، فان نقطة الوصول هي إرساء بعض أسس لما أسماه رايش بعلم نفس الجماهير : فقد استطاع النازيون أن يفرضوا سيطرتهم على الحركة الجماهيرية بالرغم من ضلال نظريتهم وتهافت ايديولوجيتهم

ورجعية مبادئهم، وهذا لانهم عرفوا كيف يتوجهون الى بسيكولوجيا الجماهير وكيف يخاطبون فيها نفسيتها . اما الاشتراكيـــون والماركسيون فانهم ، لجهلهم بعلم النفس الجماهيري ولرفضهم اياه ، وجدوا انفسهم مقضيا عليهم بالانعزال عن الجماهير وبخسارة نفوذهم عليها بالرغم من صواب نظريتهم وثورية ايديولوجيتهم . ومن ثم فان هذا الكراس نداء الى تأسيس علم نفس للجماهير ، ولكن علم نفس تكون الجماهير ذاته لا موضوعه .

يقول بوريس فرانكيل عـــن رايش انه «ثوري في نظـــر الاصلاحيين ، واصلاحي في نظر بعض الثوريين ، تروتسكي في نظر الستالينيين الاورثوذكسيين ، وستاليني في نظر غـــلاة التروتسكيين الاورثوذكسيين ...» . وصحيح اننا نجد في هذا الكراس قسمات وملامح من وجوه رايش المتعددة هذه ، لكن ثمة وجها آخر ينبغي ان نضيفه الى التعداد الآنف الذكر ، وهو الوجه الفوضوي . ونحن لا ننبه الى ذلك تذكرة بأن رايش تقهقر مـــع الاسف في أواخر حياته من الماركسية نحو ضرب من النزعـــة الفوضوية ، بل تأكيدا على ضرورة قراءة النص الذي نقدم فيما يلي ترجمته قراءة نقدية ، وهي قراءة واجبة أصلا مع كل نص حتى ولو كان في غنى نص رايش وتجديداته العبقرية .

ج . ط

مدخل

يمكن تلخيص الفكرة الاساسية في هذا المؤلف على النحو التالي : ان الكفاح المر الذي يخوضه ثوريو العالم قاطبة على عدة جبهات يحملهم على الا ينظروا الى حياة البشر الا من وجهة نظر ايديولوجيتهم الخاصة بهم ، او على الا يقيموا وزنا الا لوقائع الحياة الاجتماعية المرتبطة بصورة او بأخرى بأفكارهم ومعاركهم. لكن القسم الاعظم من سكان المعمورة ، الذين يريدون تحريرهم من نير الاضطهاد الرأسمالي، يجهل كل شيء او يجهل كل شيء تقريبا عن صراعاتهم وامتحاناتهم وأفكارهم ، ويحيا عبوديته بقدر او بآخر من عدم الادراك ، فيوطد بالتالي هيمنة الرأسمال . ولو تساءلنا عن عدد أولئك الذين يتأثرون فعلا وحقا ، من بين سائر المواطنين الراشدين الالمان البالغ تعدادهم ٤٠ مليونا ، بأحكام الاعدام التي تنفذ بحق الثوريين ، وعن عدد أولئك الذين يكتفون منهم بقراءة الاعلان عن ذلك في الصحف بقدر او بآخر من عدم الاكتراث ، لادركنا على الفور ما الهدف الذي يضعه هذا المؤلف نصب عينيه : **بيان الصلة بين وعي الطليعة الثورية ووعي عامة**

الناس . وسنكتفي هنا بإثارة بعض النقاط وطرح بعض الاسئلة التي غضت الحركة العاملة عنها الطرف حتى الان . ومن الممكن ان لا تلقى هذه النقطة او تلك استقبالا حسنا . ومن الممكن ان تكون مغلوطة ، لكن هذا لا يبدل شيئا من حقيقة ان حياة البشر البسيكولوجية الفعلية تدور على صعيد آخر غير ذاك الـــذي يتصوره دعاة الثورة الاجتماعية ، وهذا على وجه التحديد بسبب رؤيتهم الاكثر نفاذا للمجتمع، ومن حقيقة ان ذلكواحد من اسباب فشل الحركة العمالية . وكل ما أرجوه ان يعد هذا النص نداء من الفرد المتوسط اللاسياسي الى قادة المستقبـــل الثوريين ، يدعوهم فيه الى ان يفهموه فهما أفضل ، والى ان يقللوا مـــن مطالبتهم اياه بفهم «مجرى التاريخ» ، والى ان يتيحوا له امكانية افضل للتعبير عن آلامه ورغائبه ، والى ان يتكلموا على نحو أقل تجريدا وتنظيرا عن «العامل الذاتي» للتاريخ ، والى ان يفهمـــوا اخيرا ان هذا العامل هو حياة الجماهير .

حزيران ١٩٣٤

ارنست باريل

-١-

نوعا الوعي الطبقي

دوافع هذا النص

ان محاولتنا الرامية الى توضيح وتبيان بعض المشكلات التي اثيرت اثناء النقاش حول اعادة بناء الحركة العمالية ، بواسطة علم النفس الجمعي ، مقضي عليها سلفا بأن يشوبها عدد من النواقص والثغرات . فالظروف والشروط الحياتية التي يجد المهاجرون الالمان انفسهم مضطرين الى العمل فيها ليست بالسهلة. فالاحتكاك الحميم ، قبل كل شيء ، بالحياة السياسية ، وبحياة الجماهير بوجه خاص ، مقطوع او مهزوز ؛ والصحف تقدم معلومات مشوهة او متناقضة ، وتهمل مسائل علم النفس الجمعي ، وهذا في ذاته واحد من عوامل الخطأ . ولا وجود لمكتبات في متناول المرء في المنفى ، او على الاقل لا وجود لعدد كاف منها . اضف الى ذلك الصراع الشاق في سبيل البقاء ، والاضطهاد من قبل سلطات الاقطار المضيفة . ناهيك عن ان التشتت الراهـــن للمنظمات

والمناقشات داخل الحركة العمالية لا تجعل المهمة ميسورة . واذا ما اخذنا بعين الاعتبار اخيرا جدة علم النفس السياسي ، المشوب بالاخطاء ونقاط الضعف الملازمة لكل علم فتي ، نكون قد بينا بما فيه الكفاية من الوضوح الظروف التي تحول دون تطلب تبحر دقيق مطلق الدقة ، لا يؤخذ عليه مأخذ ، قابل فورا للتطبيق على الممارسة السياسية . سوف نقتصر على اثارة مسائل هامة ، لم تلفت اليها انتباه احد حتى الان ، ويكفينا فيما عدا ذلك ان نقدم بعض الارشادات لمبادهة رفاقنا في النضال ، وكذلك لنقدهم الاسلحة الفكرية التي تستخدمها اليوم الجبهة الثورية .

ومحاولتنا هذه تجيب في الوقت نفسه على بعض الاسئلة التي انطرحت منذ ظهور «علم نفس الفاشية الجمعي» (١) ، وكذلك على بعض النقاد الذين لا يدللون في رايي على تفهم للمسائل البسيكولوجية ، مثلهم في ذلك مثل العديد من الاقتصاديين .

ان مناقشات مع فئات سياسية شتى قد اظهرت ان الجواب على سؤال «ما الوعي الطبقي ؟» يقتضي دراسة مسبقة للمشكلات الناجمة عن الوضع السياسي الراهن .

ان الفشل الماحق الذي منيت به الحركة الاشتراكية في المانيا كانت له اصداؤه وانعكاساته المؤسفة في البلدان الاخرى ، والفاشية تحقق في كل مكان تقدما كبيرا بالمقارنة مع الحركة الثورية . لقد دللت الاممية الثانية ، مثلها مثل الثالثة ، على عجزهما عن السيطرة على الموقف ، ولو بصفة نظرية ، هذا اذا لم نشأ ان نتكلم عن وجهة النظر العملية . دللت الاممية الثانية على ذلك بسياستها البورجوازية في الاساس والجوهر ، والاممية الثالثة بافتقارها الى النقد الذاتي ، وبتشبثها المشوَّم بالخطأ ،

---

١ – واحد من اشهر واعظم مؤلفات رايش . – م –

وقبل كل شيء لانها لم تستطيع ـ بل حتى لم تشأ ـ ان تطرد من صفوفها البيروقراطية .

يريد **حزب العمال الاشتراكي والشيوعيون الامميون** «اممية جديدة» . ولكن هناك من الان خلافات واسعة على كيفيات هذا الحزب الجديد . وقد سبق لتروتسكي ان طالب بتاسيس «الاممية الرابعة» ، وحزب العمال الاشتراكي يؤيد ذلك ويحبذه من حيث المبدأ ، لكنه يريد ان تكون «الاممية الجديدة» نتيجة لتجمع الطبقة العاملة ، ولا يريد انشاءها على دفعة واحدة كما يروم تروتسكي ، وتحقيق ذلك التجمع بواسطة هذا الشعار . اما نحن فنطرح المسالة ، في حركة السياسة الجنسية ؛ على الوجه التالي : هل ينبغي لنا ان نؤسس على الفور تنظيما وأن نقوم بالتعبئة والتنسيب على اساس برنامجه ، ام ينبغي اولا ان ندع الايديولوجيا والبرنامج يعمان وينتشران في كل مكان ، فلا نحقق التجمع التنظيمي الا فيما بعد وعلى اساس اوسع ؟ لقد وقع اختيارنا على الطريق الثاني ، ونحن نقول ان «تنظيما تمهيديا اكثر رخاوة» ينطوي على العديد من المزايا : لا تدابير فصل وطرد سابقة لاوانها ، تحاشٍ لخطر الانطواء العصبوي ، امكانية أفضل للتسرب الى منظمات أخرى ، وما الى ذلك . ان المطلوب اولا معرفة منظورات التطور السياسي وآفاقه على حد ما نتوقع . وقد خيل للجماعة التي تهتم بالسياسة الجنسية ان في وسعها التمييز بين احتمالات ثلاثة : ١ ـ احتمال انتفاضة غير متوقعة في المانيا في مستقبل قريب . ونظرا الى انه لا وجود لاي تنظيم قد هيأ نفسه، ولو في ادنى الحدود ، لمثل هذا الاحتمال ، فلن يكون في مستطاع اي تنظيم ان يتزعم الحركة وان يقودها الى حسن الختام . وهذا المنظور ، على كل حال ، اقل المنظورات احتمالا . لكن اذا ما تحقق بالرغم من كل شيء ، فسيكون الوضع في غاية الفوضى والسديمية ، وسيكون مجرى الامور متقلبا الى أبعد الحدود ،

حتى ولو لم يكن المآل سيئا . وفي هذه الحال ، سنعاضد فورا بجميع الوسائل هذه الحركة . ٢ ـ من المحتمل ان يستغرق التجمع النظري والتنظيمي للحركة العاملة بضع سنوات ، ومن المحتمل بالتالي ، اذا ما تكافلت كحركة وباتت محبوة بقيادة افضل تمرسا واصلب عزما ، ان تتوصل الى الاستيلاء على مقاليد السلطة في المانيا في العقود القليلة التالية ، ولنقل : في العقدين القادمين. وهذا المنظور كبير الاحتمال في حد ذاته ، لكنه يتطلب من الان عملا تمهيديا شاقا ، متواصلا ، لا يعرف الملل او الكلل . ٣ ـ الاحتمال الثالث الا يتحقق توحيد الحركة العمالية في ظل قيادة جديدة ، افضل تمرسا واجدر بالثقة ، او الا يتحقق بالسرعة الكافية ، وأن تعزز الفاشية العالمية مواقعها في كل مكان، معتمدة بوجه خاص على مهارتها الطبيعية في اجتذاب الاحداث والمراهقين ، فتضمن لنفسها قاعدة جماهيرية ثابتة ، مستفيدة من كل ظرف مؤاتٍ مهما يكن واهنا ؛ وفي هذه الحال يتوجب على الحركة الاشتراكية ان تتوقع مرحلة من البربرية الاقتصادية والسياسية والثقافية ، طويلة غاية الطول ، تمتد على عدة عقود، وسيتوجب عليها حينئذ ان تثبت انها لم ترتكب خطأ جوهريا وانها على كامل الحق في التحليل الاخير بالرغم من كل شيء . ان هذا الاحتمال يكشف للعيان المسؤولية الكبيرة التي تقع على كواهلنا .

انىنا نأخذ الاحتمال الاول بعين الاعتبار بمقدار ما يأذن لنا الموقف بذلك ، ونجعل من الثاني، وهو الاقرب الى امكان التحقق، هدف عملنا الذاتي ، وسوف نحشد كل قوانا لتحقيقه ، وسوف نلتمس جميع الوسائل التي في طاقة البشر لنحول دون الاحتمال الثالث .

لئن كان هدفنا على هذا الاساس تأمين وحدة الطبقة العاملة، وفاعليتها ، وتحالفها مع سائر فئات السكان الكادحين ، فان علينا

في الوقت نفسه ان نتنصل دفعة واحدة من جميع تلك الميول والاتجاهات التي تتحدث عن «تحقيق الوحدة» ، لكن التي تحقق في الواقع الانقسام من دون ان تريده . كيف نفسر ان تكوين الجماعات العصبوية الصغيرة لا يزال مستمرا حتى الان ، وهذا بالرغم من الكارثة الالمانية ، وكيف نفسر ان الاوساط المسؤولة في المانيا وفي خارجها على حد سواء لا تزال ، بكل اسف ، مثابرة على المناقشات السكولائية القديمة ، وعلى تبادل الشتائم والمسبات التي لا يراد لها ان تخلي مكانها لمقدرة فعلية ، متجهة نحو الواقع المستجد ؟ اننا نقول ان هذا التعلق المشؤوم بكلمات ومخططات وصيغ وانماط في النقاش قديمة ، متهرئة حتى اللحمة ، متشنجة ، متحجرة ، ينبع من عدم وجود كيفية جديدة في طرح المسائل ، كيفية جديدة في التفكير ، كيفية في رؤية الاشياء **جديدة كل الجدة** وبسيطة وغير معقدة . اننا لعلى يقين بأن فكرة **واحدة** أحسن اختيارها ، بأن شعارا واحدا مناسبا وملائما من نمط جديد لقمين بأن يلم شمل الجميع من جديد على الفور ، باستثناء المهذارين المحبين للنقاش في سفاسف الامور ممن لا شفاء لهم ، وان يضع حدا للمناقشات العقيمة . قد يشعر بعضهم بأنه هو «المقصود» هنا ؛ وأنا اتكلم بالفعل عن هؤلاء . ان المهمة العاجلة التي تتقدم على اي مهمة أخرى هي بعث الماركسية الحية، وفي المقام الاول في تمحيص الواقع وفي المناقشة . وهذا يقودنا الى مسألة تأسيس منظمة اممية جديدة . فاذا كان مكتوبا على مثل هذه المنظمة ان تنبش وتبعث ، حتى من مؤتمرها الاول ، المناهج والصيغ والاساليب القديمة في التفكير والنقاش ، فستكون قد ولدت ميتة . اننا نعرف منذ قديم الازمان اننا نريد مصادرة الراسمال ، وتشريك وسائل الانتاج ، وتشييد سلطة الشغيلة والجنود والمستخدمين والفلاحين وسيطرتهم على الراسمال ، وأننا نريد الديموقراطية الحقيقية للشعب الشغيل ، ونعرف ان

الاستيلاء على السلطة لهذه الغاية بقوة السلاح لا بالبطاقـــات الانتخابية امر ضروري الخ . لكن لن يكون ثمة فائدة كبيرة مـن الاكتفاء بترداد ذلك من جديد ، وباتخاذه برنامجا ، فهذا امر قد فعل في الماضي مرارا وتكرارا . ان المسألة الكبرى هي معرفة علة تشنج منظماتنا وتحجرها ، وسبب خنق البيروقراطية لنا ، ودافع الجماهير الذي دفع بها الى السير في الاتجاه المعاكس لمصالحها بالذات بحملها هتلر الى سدة الحكم . ولن تكون هناك حاجة ملحة الى ان نبذل باستمرار الكثير من الجهد والطاقة في معالجة مسائل الاستراتيجية والتكتيك ـ التي هي في غاية الاهمية في حـــد ذاتها ـ اذا كانت الجماهير معنا . ان مختلف الجماعات تتذرع الى اليوم بالاستراتيجية والتكتيك لتعارض احدهما بالآخر . والحال انه لا بد من معالجة هذه المشكلات الاساسية بمفاهيم جديدة كل الجدة ، بطرائق جديدة في التأثير على الجماهير ، بإيديولوجيـــا وببنية شخصية جديدتين كل الجدة ، قبل التفكير في إنجاح اي شيء كائنا ما كان . ولن يصعب علينا ، اذا شئنا ، ان نثبت اننا لا نتكلم لغة الجماهير الواسعة التي هي جزئيـــا غير مسيسة ، وجزئيا مسترقة ايديولوجيا ، والتي أفسحت في المجال فـــي خاتمة المطاف أمام انتصار الرجعية . فهي لم تكن تفهم لا قراراتنا ولا ما نعنيه ب «الاشتراكية» ؛ ولم يكن لها وليس لها اليوم بنـــا ثقة؛ وكانت تقرأ صحفنا بداعي الواجب او لا تقرؤها بالمرة . ولئن تحركت بنوع ما ، فهذا لانها كانت اشتراكية على نحو مبهم ، ولكن ما أمكن لنا ان نستفيد من هذا الشعور الاشتراكي المبهم ، وبذلك سهلنا امام هتلر صعوده الى سدة الحكم . ان فشلنا التام المطبق في تفهم الجماهير الواسعة وتحريكها هو العلة الاساسية للعديد من الثغرات ، الكبيرة والصغيرة ، في الحركة العمالية ، ولتعلق الاشتراكيين ـ الديموقراطيين بحزبهم ، ولشعور الكثيرين من القادة البروليتاريين بالغيظ والمذلة ، ولعادتنا كمحبين للنقاش

في سفاسف الامور وكماركسيين سكولائيين .

ان ثمة عاملا اساسيا ، ان لم نقل انه العامل الاوحد ، في فشل الاشتراكية في مختلف جوانبها ، عاملا ما عاد في الامكان التغاضي عنه او اعتباره ثانويا ، وهو عدم وجود علم نفس سياسي ماركسي قابل للاستخدام . ولا يتأتى هذا الغياب من واقع ان علم نفس كهذا لا يزال ينتظر من ينشئه فحسب ، بل ايضا من واقع ان الذعر من النظرة البسيكولوجية ، من علم نفس عملي ومتعمد ، كبير في اوساط الحركة العمالية . ان هذه الثغرة من جانبنا كانت بمثابة ميزة كبيرة للعدو الطبقي ، كما كانت أقوى سلاح بيد الفاشية . ففي الوقت الذي كنا نقترح فيه على الجماهير تحاليل تاريخية واسعة وشروحا اقتصادية مسهبة حول المنازعات الامبريالية ، كانت حماستها كلها تنصب على هتلر تحت تأثير تحريضات عاطفية عميقة . لقد تركنا ، على حد تعبير ماركس ، ممارسة العامل الذاتي للمثاليين ، وغدونا ماديين ميكانيكيين . ترى هل نبالغ ؟ هل نرى الاشياء من خلال نظارات «الاختصاصي»؟ لنحاول الاجابة على هذا السؤال بمساعدة بعض الامثلة العينية، امثلة بعضها أهم من غيره ، وبعضها اقل اهمية وثانوي ظاهريا . اننا لا نقترح ترياقا وبلسما شافيا لكل الامراض ، وانما قصدنا تقديم مساهمة صغيرة هي بمثابة بداية لا اكثر .

نوعا «الوعي الطبقي»

ضمانا لنجع اي سياسة تتطلع الى تحقيق النصر للاشتراكية وسيطرة العمل على الرأسمال ، فان من الاهمية بمكان الا تكتفي بمعرفة الاثر الموضوعي لتطور القوى الانتاجية على الحركات والتغيرات الاجتماعية ، هذا التطور المستقل عن كل ارادة ، بل ان

تتبين ايضا ـ وتعطي الاهمية الكافية لذلك ـ ما يدور في «الرؤوس» ، اي في البنية العقلية للناس الذين يتأثرون وينفعلون بالعمليات الموضوعية التي ينجزونها ، تبعا لاختلاف بلدانهم واحيائهم وزمرهم المهنية واعمارهم وجنسهم . ان مفهوم الوعي الطبقي يلعب دورا هاديا وقياديا في الحركة والسياسة الاشتراكيتين ، ذلك ان «اكتساب الوعي الطبقي» من قبل فئات السكان الرازحة تحت نير الاضطهاد هو الشرط الاول لكل تحويل ثوري للنظام الاجتماعي القائم ونعني بذلك بلا لبس وبكل وضوح ان البشر لا بد ان يتغيروا تحت تأثير العمليات الاقتصادية والاجتماعية حتى يكون في مستطاعهم انجاز عمل كبير كالثورة . ونحن نعلم ايضا ان لينين خلق الطليعة والحزب الثوريين تيسيرا لتغير البشر هذا وتسريعا وتركيزا له ، وتحويلا له الى قوة سياسية . ففي الطليعة ، التي هي نخبة المناضلين الاشتراكيين وفئتهم الاكثر وعيا ، لا بد ان يتركز وعي الوضع الاجتماعي ووعي وسائل السيطرة عليه والطرق القمينة بأن تفضي الى الاشتراكية، ولا بد ان يشحذ وأن يعوّد على التوقع والتنبؤ ، وعلى وجه التحديد ان يعوّد على الدرجة التي ينبغي ان توصل اليها الطبقات الكادحة اذا كان يراد للثورة النجاح . هذا هو ، لا اكثر ولا أقل ، جوهر المسألة السياسية التي تلخصها عبارة «الجبهة الواحدة».

ان مثالين اثنين يكفيان لبيان اننا بعيدون غاية البعد عن فهم ماهية الوعي الطبقي .

ففي الكراسة التي صدرت مؤخرا بعنوان «المعاودة» ثمة توكيد شديد على ضرورة «حزب ثوري» ، على ضرورة قيادة ثورية بملء معنى الكلمة ، لكن فيها في الوقت نفسه نفيا لوجود وعي طبقي لدى البروليتاريا . جاء في الكراسة : «في اساس جميع الافكار والمبادهات (افكار ومبادهات الاممية الثانية والثالثة) نجد الاعتقاد بوجود عفوية ثورية فطرية لدى البروليتاريا ... ولكن

ماذا لو ان هذه العفوية الثورية لم يكن لها من وجود الا في رأس اعضاء الاحزاب الاشتراكية ، من دون ان يقابلها شيء في الواقع؟ ماذا لو ان البروليتاريا ليست منقادة بنفسها ، وبالتالي بفعل القوى الاجتماعية الطبقية ، الى «النضال النهائي» ؟... انهم يؤمنون ، وهم العاجزون عن التفكير بدون مساعدة عقائدهم واطروحاتهم ، يؤمنون بحميا دينية بالقوى الثورية العفوية ...» (ص ٦) .

ان النضال البطولي المنقطع النظير ، الذي خاضه العمال النمسويون بين ١٢ و١٦ شباط ١٩٣٤ ، يبرهن على انه من الممكن بكل تاكيد ان توجد عفوية ثورية بدون وعي لـ «النضال النهائي». ان العفوية الثورية وفكرة «النضال النهائي» أمران مختلفان .

النتيجة التي يخلصون اليها اذن هي ان الوعي الثوري يجب ان يُجلب الى الجماهير . هذا صحيح ! لكن كيف السبيل الى ذلك اذا لم تكن مطلعين على ما نسميه بالوعي الثوري ؟ لقد كان في المانيا زهاء ٣٠ مليون شغيل تعمر قلوبهم مشاعر **مناهضة للراسمالية** ، وكان هذا اكثر من كافٍ من حيث العدد بالنسبة الى الثورة الاجتماعية ، لكن الفاشية هي التي ارتقت الى سدة السلطة على وجه التحديد بمساعدة مشاعر انصارها المناهضة للراسمالية . فهل المشاعر المناهضة للراسمالية هي الوعي الطبقي، ام انها مجرد استعداد للوعي الطبقي او محض شرط من شروط تكوينه ؟ لقد ابدع لينين مفهوم الطليعة والحزب ، وكذلك مفهوم التنظيم بالذات ، بهدف اكمال ما كانت الجماهير عاجزة عن تحقيقه بنفسها عفويا .

«لقد قلنا ان العمال لا يمكن ان يكون لهم وعي اشتراكي - ديموقراطي . فهذا الوعي لا يمكن ان يأتيهم الا من الخارج . ان تاريخ الاقطار كافة يشير الى ان الطبقة العاملة لا تستطيع ، في حال انكفائها على محض قواها الذاتية ، ان تكتسب سوى وعي

نقابي مهني ، اي ان تقتنع بضرورة الاتحاد نقابيا ، بضرورة شن نضال ضد المقاول ، بضرورة مطالبة الحكومة بهذا القانـــون الاجتماعي او ذاك ، الخ ...» (لينين) .

تخلق الطبقة العاملة اذن ، انطلاقا من وضعها ، «وعيا» ؛ صحيح ان هذا «الوعي» غير كافٍ لزعزعة ركائز هيمنة الراسمال (فهذا امر يتطلب حزبا على درجة رفيعة من التنظيم) ، لكنه قد يكون مشتملا على أشكال جنينية او على عناصر مما يسمى بالوعي الطبقي او الوعي الثوري . فما هذا «الوعي» ؟ كيف نفهمه ؟ ما مظاهره العينية ؟

اذا انكر بعضهم ان ما يجوز تسميته بالوعي الطبقي ، او عناصره او شروطه ، يتكوّن في الطبقة المضطهَدة ، فهذا لان هذا البعض لا يعرف الاشكال العينية لهذا الوعي ؛ أضف الى ذلك ان القيادة تجد نفسها في مأزق او طريق مسدود : فالقيادة مهما تكن على درجة عالية من البسالة والاقدام والاسعداد وما الى ذلك من الصفات لا تستطيع ابدا أن تجلب الى انجماهير ما يسمى بالوعي الطبقي ، اذا لم يكن موجودا في البروليتاريا شيء شبيه به من قريب او بعيد . اذ ما الذي ينبغي ان يجلب للجماهير ؟ المعرفة الاختصاصية الرفيعة بالسيرورة السوسيولوجية وبتناقضاتها ؟ ام المعرفة المعقدة بقوانين الاستغلال الراسمالي ؟ وهل كانت هذه المعرفة متوفرة لدى انصار روسيا الثوريـــة حين كانوا يقاتلون بحماسة ، أم انه لم تكن بهم اليها حاجة ؟ هل كانوا عمالا وفلاحين «متمتعين بوعي طبقي» ، ام كانوا متمردين لا غير ؟ اننا نطرح هذه الاسئلة حتى نبين الى اي حد هي بلا منفذ ولا مخرج .

لنبحث عن نقطة انطلاق في التجربة والممارسة البسيطتين .

لقد دار نقاش حاد مؤخرا بين أفراد جماعة سياسية حول الوعي الطبقي وضرورة «ايقاظه بكل جموحه» . وقد اضطـــر المتناقشون الى ان يطرحوا على انفسهم لاول مرة السؤال التالي:

عمَّ يدور الكلام على وجه الدقة ؟ ما المقصود حين يدور الكلام عن الوعي الطبقي ؟ لقد بادر بالفعل واحد منهم (١) ، وكان قد لـزم الصمت حتى تلك اللحظة ، فرجا احد القياديين ، من المدافعين المخلصين عن الوعي الطبقي للبروليتاريا الالمانية، ان يتفضل فيعدد خمسة عناصر من الوعي الطبقي ، واذا امكن ايضا ، خمسة عوامل تعاكس تطوره . وقد قال : اذا كنا نريد تطوير الوعي الطبقي ، فلا بد اولا ان نعرف ما نريد تطويره، ولماذا لا يتطور عفويا تحت ضغط مختلف ضروب الحاجات ، وبالتالي ما يحول دون هذا التطور ! وقد بدا واضحا ان السؤال منطقي . وقد اخذت المسؤول الموجه اليه السؤال بعض الدهشة في البداية ، ثم تردد قليلا ، ثم أجاب بكل ثقة : «انه الجوع ، طبعا ...» . وانبرى السائل يرد عليه : «هل يتمتع عضو (ف. هـ) (٢) الجائع بالوعي الطبقي ؟ هل يتمتع

---

١ ــ هو رايش نفسه ، وذلك اثناء اجتماع التروتسكيين الالمان في باريس عام ١٩٣٣ . وانما في أعقاب هذا الاجتماع وضع على الورق المسودة الاولى لهذا الكراس .

٢ ــ ف. هـ (الفصيلة الهجومية) : منظمة من منظمات الحزب النازي كانت مهمتها في البداية «المحافظة على النظام» ، ثم تحولت الى ميليشيا بالغة الاهمية عدديا . وكانت قريبة جدا من قاعدة الحزب الجماهيرية ، تتألف من «الغوغاء» ، لتقن الزعيق ولا تعرف الانضباط . وقد انشأ هتلر ، لتكون له قوة أجدر بالثقة، حرسا شخصيا عهد بقيادته عام ١٩٢٩ الى هملر . وحين ارتقى هتلر سدة الحكم عام ١٩٣٣ وقرر ، بخلاف دعايته الثورية ، الا يمس البنية العسكرية والصناعية لالمانيا ، لقي معارضة من جانب الجناح اليساري في الحزب ، ولاسيما «الفصيلة الهجومية» . وعلى اثر ذلك ، أمر هتلر الحرس الشخصي في عام ١٩٣٤ باغتيال روهم وغيره من المسؤولين عن «ف. هـ» . والى هذا الحادث يشير رايش في الفصل الرابع في هامشه : «ملاحظة اثناء التصحيح» .

بالوعي الطبقي السارق الذي يسرق قطعة من المقانق بدافع الجوع، او العاطل عن العمل الذي يقبل مقابل ماركين بالاشتراك في مسيرة رجعية ، او المراهق الذي يقذف الشرطة بالحجارة اثناء التظاهر؟.

وعليه ، اذا لم يكن الجوع ، الذي بنى عليه الحزب الشيوعي الالماني كل بسيكولوجيته ، عاملا في حد ذاته من عوامل الوعي الطبقي ، فما المطلوب اضافته اليه ؟ ما مظهره العيني ؟ بم تختلف الحرية الاشتراكية عن الحرية القومية التي يعد بها هتلر ؟

لم تكن الاجوبة مقنعة او مرضية البتة . هل سبق للصحف اليسارية ان طرحت تلك الاسئلة واجابت عليها ؟ قطعا لا .

ان التصور الذي يرى ان الطبقة المضطهَدة تستطيع من تلقاء نفسها ، بلا قيادة ، وبدافع ارادة ثورية عفوية ، ان تضمن انتصار الثورة ، لا يقل خطأ عن التصور المعاكس الذي يرى ان هذا الانتصار منوط بالقيادة وحدها ، القيادة التي لن يكون عليها في هذه الحال سوى ان تخلق الوعي الطبقي . والحال انه لن يكون في مستطاع القيادة ابدأ الوصول الى ذلك ، اذا لم يكن هذا الوعي يتمتع فعلا بوجود ما ، وان في شكل عفوي . اذا صح ، اذن ، ان الشرط الذاتي للثورة الاجتماعية هو التوافق بين حالة نفسية معينة للجماهير وبين الوعي الاسمى والارفع للقيادة الثورية ، فان ضرورة الاجابة على السؤال : «ما الوعي الطبقي ؟» تصبح اكثر الحاحا . واذا ما اعترض هنا معترض بأن السؤال غير ضروري ولا طائل تحته ، اذ كان يجري التوكيد على الدوام على واجب الاعتماد على «الحاجات اليومية» ، فاننا نسأل في هذه الحال : «هل المطالبة بوضع مراوح في المنشآت تساهم في تطوير الوعي الطبقي ؟ وإلامَ يصير الحال حين يفعل ذلك ايضا مجلس المنشأة التابع لـ «م. ع. ق. إ(١)» ؟ وربما حين يفعله بمزيد من المهارة

---

١ ـ هي المنظمة النازية «منظمة العمل القومية الاشتراكية» .

والتوفيق ؟ ابذلك يتم اكتساب مشاعر العاملين في المنشأة ؟ اين الفارق بين دفاع الاشتراكيين عن «المصالح الصغيرة» ودفاع الفاشيين عن نفس المصالح ، بين شعارنا في الحرية وشعار «القوة بالفرح » (١) ؟

هل يذهب بنا الفكر الى شيء واحد حين نتكلم عن الوعي الطبقي لدى العامل المتدرب وعنه لدى قيادي في حركة الشبيبة ؟ يقال ان وعي الجماهير يجب ان يُرفع الى مستوى الوعي الطبقي الثوري؛ فاذا كان المقصود بذلك المعرفة المتخصصة التي يفترض بالقيادي الثوري ان يمتلكها بخصوص مجرى التاريخ ، فاننا نكون نسعى وراء وهم وسراب لا اكثر . ففي ظل الراسمالية لن يكون في الامكان ابدا الوصول ، عن طريق اية دعاية ، كائنة ما كانت ، الى بث هذه المعرفة المتخصصة للغاية في الجماهير الواسعة التي يفترض بها ان توصل الانتفاضة والثورة الى حسن الختام. ونظرا الى اننا كنا نكتفي في الاجتماعات الانتخابية باطلاق الشعارات ، او بحمل مسؤول من المسؤولين على الاسهاب طوال ساعات ، كما كان يحدث غالبا في «قصر الرياضة» ، في شرح السياسة المالية للبورجوازية او التناقضات الاميركية ـ اليابانية ، فقد كنا نخنق للحال الحماسة والانفعال البدئيين ، ونسب الى الجماهير الاهتمام والقدرات الضرورية على التحليل الاقتصادي الموضوعي ، ونلاشي هباء لدى الآلاف من المستمعين ما يسمى بحق بالشعور الطبقي . لقد افترضت السياسة الماركسية الثورية حتى الان وعيا طبقيا جاهزا لدى البروليتاريا ، من دون ان تكون قادرة على تحليله عينيا وبالتفصيل . وقد عزت معرفتها الخاصة بالسيرورات السوسيولوجية ـ وهي معرفة مغلوطة اصلا في غالب الاحيان ـ

---

١ ـ اسم منظمة نازية تهتم بأوقات الفراغ .

الى وعي الطبقات المضطهَدة ، وهذا ما وصف مؤخرا بـ «المثالية الذاتية» . ومع ذلك كان يَعثر بلا لبس ، كلما انعقد اجتمـــاع شيوعي ، على أثر لـ «وعي الجماهير الطبقي» ويماط عنه اللثام ، وهذا ما كان يميز جو الاجتماع عن جو اي تنظيم سياسي آخر . لا بد اذن ان يكون هناك ، بين الجماهير الواسعة ، نوع من وعي طبقي يتمايز تمايزا جوهريا عن وعي القيادة الثورية . وعليه ، ان هناك **نوعين** من الوعـــــي الطبقي : **وعي القيادة الثورية ووعي الجماهير** ؛ ومن الواجب ان يتطابق الاثنان . وليس امام القيادة من مهمة اعجل واكثر الحاحا، علاوة على المعرفة الدقيقة بالسيرورة التاريخية الموضوعية ، من مهمة فهم ما يلي :

أ ـ ما الافكار وما الرغبات التقدمية التي تتواجد تبعا للفئات والمهن والاعمار والجنس .

ب ـ ما الرغبات والهواجس والافكار التي تعيق تطور المظهر التقدمي («الثوابت التقليدية») .

ليس وعي الجماهير ألطبقي جاهزا ، كما كانت تتصور قيادة الحزب الشيوعي الالماني ، ولكنه ليس غائبا كامل الغياب ، كما ان بنيته ليست تلك التي تعزوها اليه قيادة الحزب الاشتراكي . فوعي الجماهير الطبقي يتمثل بالاحرى في شكل عناصر عينيـــة ليست هي بذاتها بعد ألوعي الطبقي (الجوع على سبيل المثال) ، ولكنها قمينة باجتماعها وتضافرها ان تنتجه . كذلك ليست هذه العناصر في حالة من النقاء التام ، وانما تشوبها وتختلط بها قوى وتصورات نفسية من اتجاه معاكس . ان شخصا كهتلر لا يمكن ان يكون على صواب ، مع ضيفته القائلة ان الجماهير قابلة للتأثـــر قابلية الاطفال ، وانها لا تفعل من شيء سوى ان تردد ما تلقم اياه، الا بقدر ما لا يؤدي الحزب الثوري اهم مهامه قاطبة ، اي انشاء الوعي الطبقي بدءاً من قواه الابتدائيـــــة ، وتوضيحه ، وتصفيته ، والتقدم به الى الامام . والحال انه لم يكن في المانيا

شيء من هذا على الاطلاق .

ليس مضمون الوعي الطبقي للقيادي الثوري من طـــراز شخصي ؛ بل على العكس ، فبقدر ما تختلط به المصالح الشخصية (الطموح ، الخ ...) تعيق فعله وعمله . وبالمقابل ، نجد ان الوعي الطبقي للجماهير الواسعة (باستثناء اقلية ضئيلة من الشغيلـــة الواعين ثوريا) هو من طراز شخصي محض . الوعي الاول يشتمل على معرفة تناقضات الاقتصاد الراسمالي ، والامكانيات المنقطعة النظير للتخطيط الاشتراكي ، وضرورة الثورة الاجتماعية بوصفها ملاءمة لشكل التملك مع شكل الانتاج ، والقوى التاريخية ذات الاتجاه التقدمي او الرجعي . اما الوعي الثاني فبعيد غاية البعد عن تلك المعرفة وعن المنظورات والآفاق الواسعة، وجوهره الصغائر والسفاسف وما هو يومي . الاول يدرك السيرورة الموضوعية ، التاريخية ، الاجتماعية ـ الاقتصاديـــة ، ويستوعب الشروط الخارجية ذات الطبيعة الاقتصادية والاجتماعية التي يخضع لها البشر ؛ والحق ان هذه السيرورة لا بد ان تفهم ، لا بد ان توضع اليد عليها وأن تتم السيطرة عليها ، اذا كنا نريد ان نكون سادتها لا عبيدها . لا مناص اذن من وضع تخطيط قادر على تلافي الازمات المحتومة وعلى خلق القواعد الضرورية لحياة الشغيلة قاطبة. ومن هذا المنظور ، ان المعرفة الدقيقة بالتناحرات الاميركية ـ اليابانية، وبغيرها من التناحرات ، ضرورية مطلق الضرورة . وبالمقابل ، لا يهتم الثاني البتة بالتناحرات الروسية ـ اليابانية او الانكليزية ـ الاميركية ، كما لا يهتم بتقدم القوى الانتاجية ؛ واهتمامه كله منصب على انعكاسات هذه الاوالية الموضوعية في الذاتية وترسباتهـــا ومفاعيلها فيها ؛ في شكل عدد لا حصر له من الشؤون الصغيرة للحياة اليومية . ان مضمونه اذن هو الاهتمام بالمأكل ، بالملبس ، بالموضة ، بوشائج القربى ، بامكانيات التلبية الجنسية بالمعنــى الضيق للكلمة ، بالالعاب والمتع الجنسية بالمعنى الواسع للكلمة ،

كالسينما والمسرح والمهرجانات والرقص ، وكذلـــك الاهتمام بمصاعب تربية الاولاد ، وتدبير شؤون البيت ، ومدة اوقات الفراغ ومحتواها الخ ...

ان وجود وشروط وجود البشر تنعكس وتترسب وتعيـد انتاج نفسها في بنيتهم العقلية وتعطي هذه الاخيرة شكلها . وانما من خلال هذه البنية العقلية وحدها تصبح السيرورة الموضوعية في متناولنا ، ويغدو في وسعنا ان نعيقها او نيسّرها ونسيطر عليها . وانما بواسطة راس الانسان ورغبته في العمل وطلبه لفرح الحياة ، وباختصار ، وجوده النفسي ، نخلق العالم ونستهلكـه ونحوّله . هذا ما نسيه منذ طويل الآماد أولئـك «الماركسيون» الذين انحطوا الى اقتصادويين . واذا كانت السياسة العامة ، المتعلقة بالاقتصاد والدولة والمتوضعة علـى المستوى التاريخي ، تهدف الى بناء وتوطيد الاشتراكية الاممية ، لا اشتراكية قومية ما (لتطلق على نفسها ما تشاء من الاسماء (١)) ، اي اذا كانت تريد ان تبقى ماركسية ، فلا بد ان ترجع الى الحياة اليومية المتواضعة ، المبتذلة ، الساذجة والبسيطة ، للجماهير الواسعة ، بكل تنوعها الجغرافي والاجتماعي . **هذه هي الطريقة الوحيدة الممكنة التـي تتيح ربط السيرورة السوسيولوجية الموضوعية بوعـــي البشر الذاتي** ، وتسمح بتجاوز تناقضهما والهوة التي تفصل بينهما . وباختصار ، تتيح امكانية تزويد الشغيلة ، الذين هم في اساس الحضارة والذين يخلقون الثروة والغنى ، بوعي حقوقهم ، وتعطيهم القدرة على ان يعوا اخيرا المستوى الحضاري الذي بلغته «النخبة» ، **ونمط حياتهم الخاص بهم ، وقلة تطلبهم التي يجعلون منهـــا**

---

١ ـ معروف ان هتلر كان يطلق على حزبه اسم «حزب عمال المانيا الاشتراكي القومي» ، و«النازي» هو اسمه المختصر .

فضيلة ، والتي يصفونها احيانا بأنهم ثورية . ويوم يتم ذلـك الارتباط نكون قد غادرنا مجال المناقشات الفلسفية الباطنية عن الطليعة والتكتيك لندخل في مجال التكتيك الحي للحركـة الجماهيرية ، في النشاط السياسي الوثيق الصلة بالحياة . ونحن لا نتجاوز حدود الجراة اذا زعمنا ان الحركة العمالية كانت ستوفر على نفسها تاريخا طويلا مديدا من التشيع والتعصب والبـدع والسكولائية والانقسامية والشقاق ، وكانت ستختصر الطريـق الشائـك نحو **ما هو اساسي بالنسبة الى الجميع** ، اعنـي الاشتراكية ، لو انها استمدت دعايتها وتكتيكها وسياستها لا من الكتب وحدها ، وانما ايضا ، وفي المقام الاول ، من حيـاة الجماهير . أن لمن الحقائق الواقعة التي لا مماراة فيها ان الشبيبة اليوم ، ومن اكثر من زاوية ، اكثر تقدما من «قادتها» الذين لا يرون غير فائدة «تكتيكية» في أشياء من قبيل الحياة الجنسية هي عين البداهة بالنسبة الى الشبيبة . والحال ان المفروض ان يكون العكس ، اي ان يكون القائد تجسيدا للنوع الاول من الوعي الطبقي وأن ينشىء الثاني ويصوغه . ولعل من لديه اطلاع على الصراعات الايديولوجية في الحركة العمالية قد سار معنا حتى الان بطوع ارادته بقدر او بآخر ، ولعله تساءل في اغلب الظن : «لكن ليس ثمة من جديد في ذلك . فما جدوى هذا الخطاب الطويل ؟» . ان في وسعه ان يقتنع بسرعة بأن العديد ممن يتفقون معنا من حيث المبدأ يدللون على تردد وتحفظ بمجرد الوصول الى الاشياء العينية ، فتصدر عنهم اعتراضات وشكوك ، ويجنحون الى الوقوف موقف المعارض منا ، مستشهدين بماركس ولينين . واننا لنوصي من جديد ذاك الذي قد يعن له ان يفعل ذلك بـأن يحاول ، قبل ان يتابع القراءة ، ان يتصور بوضوح خمسة عناصر عينية من الوعي الطبقي وخمسا من العقبات التي تعترض سبيله .

ان أولئك الذين يفهمون الوعي الطبقي على انه استعـداد

اخلاقي سيلقون مشقة كبيرة في التسليم بالوقائع التالية :

ان الرجعية السياسية ، وعلى راسها الفاشية والكنيسة ، تطالب الجماهير الشغيلة بالعزوف عن السعادة الارضية ، وبالحشمة والطاعة والامتثال ، وبالتضحية في سبيل الامة والشعب والوطن . ولا تكمن المشكلة في انها تطالب بذلك ، وانما في انها تحيا سياسيا وتغتني وتسمن من تطبيق الجماهير لهذه التعاليم . هي تعتمد اذن على مشاعر الذنب والإثم لدى الفرد المتوسط ، على الحشمة التي القم اياها ، على استعداده لتحمل الحرمان بصبر ودعة ، بل احيانا بفرح . ومن جهة اخرى على تشبهه بالفوهرر الماجد العظيم الذي يقدم له «حبه للشعب» كبديل عن الاشباع الفعلي . صحيح ان الطليعة الثورية تخضع هي نفسها لايديولوجيا مماثلة من منظور شروط وجودها والاهداف التي تنشدها . لكن ما يصح على سبيل المثال بالنسبة الى قائد من قادة حركة الشبيبة لا يمكن البتة أن يصح بالنسبة الى الشبان الذين يقتدون به . واذا كنا نريد ان نزج بجماهير الشعب في معمعان القتال ضد الراسمال ، وان نطور وعيها الطبقي وننميه ، وأن نقودها الى التمرد ، فلا مناص من التسليم بأن مبدأ العزوف ضار ، ثقيل الوطأة ، بليد ، رجعي . والحال ان الاشتراكية تزعم ان القوى الانتاجية نامية ومتطورة بما فيه الكفاية لتكفل لجماهير جميع الاقطار حياة منسجمة مع مستوى الحضارة . **علينا اذن ان نعارض مبدأ العزوف الذي تنادي به الرجعية بمبدأ السعادة الارضية** ؛ وواضح أننا لا نعني بذلك اللعب بالبولينغ او شرب البيرة . ان حشمة «بسطاء الناس» ، التي هي الفضيلة في نظر الكنيسة والفاشية ، هي من وجهة النظر الاشتراكية افدح اخطائهم ، وواحد من العوامل العديدة التي تعيق وعيهم الطبقي . ان لفي مستطاع الاقتصادي الاشتراكي ان يبرهن على ان هناك ما فيه الكفاية من الثروة والغنى لتامين حياة سعيدة للشغيلة طرأ .

وحسبنا ان نعرض لهذا البرهان بصورة أكثر دقة وتفصيلا ومتانة، وبكل عناية الاستقصاء العلمي .

ان الشغيل المتوسط في المانيا او في اي مكان آخر لا يهتم بخطة الاتحاد السوفياتي الخمسية في حد ذاتها ، وانما فقط بمسألة زيادة تلبياته . وهو يحاكم الامور على الوجه التالي بنوع ما : «اذا كانت الاشتراكية ستأتينا بدورها بالتضحية والعزوف والفاقة والحرمان ، فلا يهمنا بقليل او كثير ان يسمى هذا البؤس اشتراكيا او راسماليا . ان على الاقتصاد الاشتراكي ان يثبت تفوقه بإثباته أنه يستطيع تلبية حاجاتنا ومواجهة تزايدها» . وهذا يعدل القول ان **بطولة القيادة لا تصلح للجماهير الواسعة** . واذا كانت حرمانات بعينها تفرض على الجماهير في المراحل الثورية ، فان من حق هذه الجماهير ان تطالب بالبرهان الساطع على ان هذه الحرمانات تتميز بطابعها المؤقت عن حرمانات الراسمالية . والاتيان بهذا البرهان هو واحدة من الصعوبات التي تلاقيها نظرية أمكانية الاشتراكية في بلد واحد . اننا نتوقع هنا ان تثير هذه الاطروحة السخط والاستنكار. ولا ريب في ان اطلاق تهمة «العقلية البورجوازية الصغيرة» والايبقورية (١) لن يتأخر . بيد ان لينين وعد الفلاحين مع ذلك بأراضي كبار الملاكين ، وان كان يدرك ان توزيع الاراضي يشجع «العقلية البورجوازية الصغيرة» ؛ وقد حقق الثورة بصورة رئيسية مع هذا الشعار ، مع الفلاحين ، لا ضدهم ؛ وبذلك أنتهك على نحو لا مماراة فيه مبدأ كبيرا من مبادىء السياسة والنظرية الاشتراكيتين ، مبدأ الجماعية . وبالمقابل ، كان للثوزيين المجريين مبادىء سامية ، ولكن لم تكن لهم من فكرة البتة عن العامل الذاتي ؛ **فقد كانوا**

---

١ ـ هنا مذهب الانغماس في اللذات . ـمـ

يعرفون حق المعرفة ما يتطلبه التاريخ ، ولكن ليس ما يتطلبه الفلاح ، وهكذا حولوا على الفور الملكية الكبيرة الى ملكية اشتراكية ، فخسروا بذلك الثورة . يكفي هذا المثال وحده بين العديد من الامثلة الاخرى للبرهان على انه ليس في المستطاع ادراك هدف الاشتراكية النهائي الا عبر انجاز اهداف الافراد الصغيرة والمباشرة ، وعبر تلبية متعاظمة لحاجاتهم . في هذه الحال وحدها يمكن أن تنتقل عدوى البطولة الثورية الى الجماهير الواسعة .

قليلة هي الاخطاء الفادحة التي تضارع خطأ تصور «الوعي الطبقي» على انه مفهوم خلقي . فالتصور الزهدي للثورة لم يؤد حتى الان الا الى المصاعب والهزائم .

ثمة بعض اسئلة تسمح بالتحقق مما اذا كان يجوز اعتبار طبيعة الوعي الطبقي طبيعة أخلاقية ؛ او طبيعة عقلية لا تمت بصلة الى الاخلاق .

اذا كان شخصان هما (أ) و (ب) يتضوران جوعا ؛ فان واحدهما قد يخنع ويمتثل لامره ؛ فلا يسرق ، ويتسول او يبيت على الطوى ؛ لكن الآخر قادر على تأمين قوته بوسائله الخاصة . ان شطرا كبيرا من البروليتاريا يعيش بحسب مبادىء (ب) . ويطلق على هذا الشطر اسم «البروليتاريا الدون» . نحن لا نشاطر الرومانسيين اعجابهم بعالم الاشقياء ، لكن لا بد من توضيح المسألة ؛ فمَن من الشخصين المذكورين اعلاه يملك في ذاته من عناصر الوعي الطبقي اكثر مما يملك الآخر ؟ ان السرقة ليست بذاتها مؤشرا من مؤشرات الوعي الطبقي ؛ لكن التحليل السريع يظهر ــ حتى لو كان ذلك يصدم حسنا الاخلاقي ــ ان من لا يتكيف مع القوانين فيسرق اذا عضه الجوع بنابه ، معبرا على هذا النحو عن رغبته في الحياة ، يحمل في داخله من القابلية للثورة اكثر مما يحمل ذاك الذي يستسلم بوداعة لمذبح الراسمالية.

اننا نذهب الى القول بان المشكلة الاساسية في علم نفسي جيد ليست معرفة لماذا يسرق الجائع ، بل على العكس لماذا لا يسرق .
لقد قلنا ان السرقة ليست في ذاتها الوعي الطبقي بعد ؛ هذا لا يرقى اليه شك . فالقرميدة ليست هي المنزل بعد ، لكن المنازل تبنى بالقرميد ، ولا بد ايضا من أخشاب وملاط وزجاج ، وكذلك ــ اذا ذهب بنا الفكر الى دور الحزب ــ لا بد من مهندسين وبنائين ونجارين الخ .

اننا نسقط في مأزق لا منفذ له اذا أصررنا على اعتبار الوعي الطبقي مطلبا أخلاقيا يزاحم البورجوازية والناطقين بلسانها على شجب النشاط الجنسي الفتوي ، وشخصية المومس ، وفظاعة المجرم ، ولا اخلاقية اللص . الا يتناقض تصورنا مع مصالح الثورة ؟ أليس في مستطاع الرجعية السياسية ان تستخدم في دعايتها ضدنا تصورنا الذي لا يمت الى الاخلاق بصلة عن الوعي الطبقي ؟ انها ستفعل ذلك بكل تأكيد ، وهي على كل حال تفعله منذ أمد طويل على الرغم من حرصنا في غالب الاحيان على البرهان على أخلاقيتنا . وليس في هذا من جدوى او نفع ، سوى انه يدفع بضحايا الراسمالية الى أحضان الرجعية السياسية شعورا منهم باننا لا نفهمهم . ثم ان مقامنا في أنظار الرجعية السياسية لا يرتفع بسبب ذلك . فنحن في تقديرها لصوص ، لاننا نريد مصادرة ملكية الملاك الفرديين لوسائل الانتاج . هل يتوجب علينا اذن أن نتخلى ، والحالة هذه ، عن هدفنا الاساسي هذا ، او ان نخفيه ؟ أفلا تستغله الرجعية ايضا ضدنا ؟

ان كل ما يسمى اليوم أخلاقا او علم الاخلاق يخدم اضطهاد الانسانية الكادحة . وفي وسعنا أن نثبت نظريا وعمليا ان التنظيم الاجتماعي الذي ندعو اليه قادر على تحويل الفوضى الحالية الى نظام حقيقي ، وهذا على وجه التحديد لانه يمكن الا يمت الى الاخلاق بصلة . ولقد كان موقف لينين من مسألة الاخلاق

البروليتارية مستوحى بلا لبس من مصلحة الثورة البروليتارية . فكل ما يخدم الثورة أخلاقي ، وكل ما يلحق بها الضرر لا اخلاقي. ولنحاول الان ان نصوغ المسالة بصورة اخــرى : **من الممكن ان ندرج في عداد عناصر الوعي الطبقــي كل ما يناقض النظــام البورجوازي وكل ما يشتمل على جرثومة الثورة ، ومن الممكن على العكس ان ندرج في عداد معوقات الوعي الطبقي كل ما يشد الى النظام البورجوازي ويدعمه ويعززه** . يقال ان المتظاهرين خــلال ثورة تشرين الثاني حرصوا أشد الحرص ، فيما كانت الجماهير تتدفق على حديقة الحيوان ، على الا يدعسوا فوق عشب المرجة. وهذه النادرة ، سواء أصحت أم أحسن ابتكارها ، تلخص جوهر مأساة الحركة الثورية : **تبرجز فاعل الثورة** .

-٢-

بعض عوامل الوعي الطبقي العينية
وبعض عوامل الكف لدى الفرد المتوسط

سوف نحاول هنا ان نجمع ، بدون تبرير نظري معمق ، شتات عدد من مواقف الفرد المتوسط، شطر منها متجه تخصيصا نحو الوعي الثوري ، وشطرها الآخر يعاكس تكوين هذا الوعي ، وبعبارة اخرى ، يفعل فعله باتجاه رجعي . ونحن لن نأخذ بعين الاعتبار سوى المواقف المتجهة اما الى اليسار واما الى اليمين ، وليس المواقف المحايدة سياسيا التي يمكن ان تخدم مختلف الاتجاهات السياسية ، كالفصاحة على سبيل المثال ، والروح النقدية ، وحب الطبيعة ، الخ ... وكان من الممكن ان نضاعف الامثلة التي ستتلو الى ما لا نهاية . وقد صفت الامثلة التالية بالتعاون مع اثنين من المراهقين .

لدى الشبان
(في زمن البلوغ وبعد البلوغ)

منذ قديم الازمان والاحزاب السياسية على مختلف ضروبها تتوجه بصورة خاصة الى الشبيبة ؛ وليس مرد ذلك فحسب الى ان المستقبل ما يزال امام هذه الاخيرة ، بينما امسى المستقبل بالنسبة الى غالبية الراشدين «وراءهم» على حد التعبير الشائع الموفق . ومن ثم فانها خليقة بأن تحتل المرتبة الاولى . ولكن لا بد من الاضافة بأن طبقة اعمار افرادها التي هي أنشط طبقات الاعمار قاطبة واكثرها فاعلية ترتبط ايضا بقدراتها على التحمس ، بنضوجها الجنسي ، باستعدادها للالتزام وللعمل المرتبطين بكل ذلك . وهذه الصفات ليست متجهة في حد ذاتها الى اليسار او الى اليمين . فالكنيسة ، على سبيل المثال ، تعتمد عدديا على الشبان اكثر من اعتماد الاحزاب اليسارية عليهم . بيد انه لا يصعب علينا ان نميز عوامل متناقضة في قلب التجربة الفتوية ، تدفع ببعضهم نحو اليسار وببعضهم الآخر نحو اليمين . اننا لنلقى في كل مراهق ميلا الى التمرد على اهله الذين يمثلون عاذة الاجهزة التنفيذية لسلطة الدولة . وهذا التمرد هو المحرك الرئيسي لاتجاه الشبان نحو التيارات السياسية اليساريه . وهو مرتبط دوما بحاجة ، واعية بقدر او بآخر ، شديدة بقدر او بآخر ، الى اتمام الحياة الجنسية . وكلما نمت الميول الجنسية الطبيعية باتجاه اشتهاء الآخر ، باتت الشبيبة أكثر انفتاحا على الافكار الثورية . وكلما كانت الحاجة الجنسية المثلية فعالة في النفسية ، وكلما زاد كبت وعي الجنس بوجه عام ، اتجهت الشبيبة يمينا . ان الكف الجنسي ، والخوف من النشاط الجنسي ، والشعور بالذنب المرتبط بهما ، هي على الدوام عوامل دافعة باتجاه اليمين

او معيقة على الاقل للطريقة الثورية في التفكير . ان التعلق بالاهل وبالبيت الابوي عامل قوي من عوامل الكف غير قابل للعكس .

ونحن نطلق صفة عدم القابلية للعكس على تلك الوقائع النفسية التي لن يمكنها ابدا ان تغدو عناصر ايجابية للوعي الطبقي ، والتي لن يمكن ابدا بالتالي استخدامها من قبل الحزب الثوري برسم الثورة الاجتماعية . وليس هناك بصدد هذه النقطة سوى استثناء واحد ، هو استثناء الاولاد الذين يمتلك اهاليهم قناعات ثورية ؛ فالتعلق بالاهل يمكن ان يغدو في هذه الحال ايجابيا ، لكنه كثيرا ما ينقلب ايضا الى نقيضه ، اذ تنجم عن معارضة الاهل مشاعر رجعية .

ثمة حاجة تقض مضاجع الشبيبة اكثر من اي حاجة اخرى، وترتدي تلبيتها اعظم الاهمية ، لكننا لا نجدها مذكورة مع ذلك في اي بيان او برنامج للشبيبة : الحاجة الى مسكن ، الى غرفة مستقلة . وفي مقدورنا ان نضع هذه الحاجة مباشرة بعد التمرد على الاهل كعامل ايجابي من عوامل الوعي الطبقي . وهي على كل حال حاجة يعجز عن تلبيتها بأي صورة من الصور النظام الذي تريده الرجعية السياسية . ثم انها لا يعاكسها اي عامل من عوامل الكف ، وهي موجودة حتى لدى الفتاة الرجعية . كذلك فان الحاجة الى الحياة في مجتمع من الشبان عامل ايجابي هي الاخرى ، وان تكن موضع معاكسة مستمرة بفعل التعلق بالاسرة و«الحنين الى البيت» او المنزل . ومن الممكن الخلاص من هذا التعلق وهذا الحنين اذا ما نظم المجتمع تنظيما حصيفا ، اي اذا ما تحول المجتمع الى بيت . ولدى الشبيبة قاطبة تقريبا نازع قوي الى الرقص، لكنه بخلاف الرباط الاهلي عامل قابل للعكس، اي انه كاف ، كابح في الظروف العادية ، ولكن قد يسهل التلاحم الثوري اذا وجدت مشكلة علاقة السياسة بالحياة الخاصة حلا ثوريا . ولقد كان المهرة من محركي جماعات الشباب في المانيا يفلحون في

ذلك احيانا .

اما في المانيا الراهنة فان الحاجة الى الحياة الجماعية ، مثلها مثل النزوع الى الرقص ، تخدم الى غير ما حدود الرجعية السياسية التي تتولى تنظيم تلك الحاجة وهذا النزوع ، لدى المسيحيين في شكل «لقاءات» ، ولدى النازيين في شكل روابط جماعية للشبان .

لقد وردتنا من المانيا القصة التالية :

«لقد تحدثت مؤخرا الى تلميذة من برلين ، لها من العمر سبعة عشر عاما ، قضت عطلتها الصيفية هنا . انها تداوم على مدرسة في فيلمرسدورف ، وقد روت لي عرَضا بعض اشياء يمكن ان تحظى بكبير اهتمامك .

«يتمتع الصبيان والبنات في (الشبيبة الهتلرية) وفي (اتحاد الفتيات الالمانيات) بحرية لا تصدق في المدرسة وفي البيت ، تتجلى بالبداهة في الصداقات والنشاطات الجنسية .

«في الماضي ، ما كانت فتاة من صفها ومدرستها لتجرؤ البتة على ان تجعل صديقا لها ينتظرها عند باب المدرسة . اما اليوم فان الصبيان (ولاسيما أعضاء «الشبيبة الهتلرية») يتجمعون زمرا زمرا امام المدرسة ، ولا يرون في ذلك امرا غير طبيعي . و«اتحاد الفتيات الالمانيات» ما عاد يسمى الا باسم (Bubi Druck Mich (اي عانقني يا صبي) . وقد توجب حل شعبة «اتحاد الفتيات الالمانيات» في داهلم لان ست فتيات (تقل أعمارهن عن ١٨ سنة) غدون حوامل .

«بيد انه من المثير جدا للاهتمام مع ذلك ان نرى كيف تؤدي محاولة تنظيم الشبيبة الى ارتخاء القيود العائلية ، لان هذه الامثلة لها مغزاها الكبير ، وقد تأكد لي صحة ذلك فيما بعد» .

لا يصح القول بأن الصبيان والبنات يتمتعون ب «حرية لا تصدق» . فمن يزعم ذلك يدلل على انه لا يرى الاوضاع الحقيقية،

والحاجات الحقيقية ، والتناقضات الحقيقية . فحتى في الماضي كانت البنات يحملن الصبيان على انتظارهن امام المدرسة ، ان لم نقل أمام المدرسة المذكورة بالذات . وانما من وجهة نظر الاخلاق البورجوازية وحدها كان «الحبل» وحمل الصبيان على «الانتظار» امام المدرسة يبدوان علامة على «حرية جنسيـــــة» للشباب . والحريات التي تحصل عليها شبيبة داهلم اليوم كانت مكتسبة منذ زمن بعيد في نيوكولن (١) . وعليه ، ان ما يجب ان يؤخذ بعين الاعتبار هو الكل ، المجموع ، اذ ينبغي ان نتبين اولا التناقض الهائل الذي يهصر الشبيبة الهتلرية : فمن جانب تربية عسكرية واستبدادية مع فصل بين الجنسين ، ومن جانب آخر ، وبسبب اكتساء حياة الشبيبة طابعا جماعيا ، بتر للروابـــط العائلية ، وزعزعة للاخلاق العائلية التي تتعايش مع ايديولوجيا عائلية فاشية بالغة القوة . ان على الثوريين الالمان ان يتتبعوا باهتمام كبير اشباه هذه التناقضات وأن يفسروها للمعنيين بها . وفي الحالة التي تشغلنا هنا ، يجب تشجيع الشبيبة على قطع أواصرها بالبيت العائلي ، مع التوكيد الصريح على تناقض هذه القطيعة مع العبادة الرسمية للزعيم والاسرة . وينبغي ايضا ان نظهـــر للعيان أن الشبيبة ، التي تعرب عن **طموحها الى الحرية والى تقرير المصير الذاتي** بفصمها الروابط العائلية ـ وهو امر يحظى بموافقتنا ـ تسقط في الحقيقة في شراك **علاقة استبدادية اخرى** ، علاقـــة معسكر الخدمة المدنية او الرابطة الفاشية حيث تجد نفسها ملزمة من جديد بأن تلزم الصمت . وفي الميدان الجنسي ، تحديدا ، تظهر للعيان التناقضات في أقصى درجات الوضوح . فـ «الاخلاق الاكثر حرية» تتطابق مع الاتجاه التقدمي لدى الشبيبة الهتلرية ،

---

١ ـ فيلمرسدورف وداهلم ونيوكولن: ضواح في برلين. ـ م ـ

لان هذه الاخلاق ثورية وان على نحو مبهم وذاتي ؛ بيد ان قيادة ثورية لن تقدم ابدا على حل رابطة للفتيات لان بعض الفتيات قد حملن ؛ وإقدام قيادة «حزب عمال المانيا الاشتراكي القومي» على الحل يبرهن بلا لبس ــ ولقد كن مراسلنا على درجة مــــن السذاجة حالت بينه وبين رؤية ذلك ــ على ان الاخلاق المذكورة محرجة ومضايقة لها ؛ وهي تناقض بالفعل كل تصورها الاخلاقي.
ان علينا ان نشرح بوضوح لهؤلاء الصبيان والبنات الهتلريين حقهم الكامل في تقرير مصيرهم بأنفسهم وفي اخذ المجتمع لحاجاتهم على عاتقه ، وفي المقام الاول حاجاتهم الجنسية . ومن يتصور ان الحرية الجنسية متحققة من الان في الموقف الراهن يتعامَ ، اولا ، عن ان ذلك النزر اليسير من الحرية يكفي وحده لحمـــل جهاز الدولة الاخلاقي على التدخل ؛ ويتعامَ ، ثانيا ، عن اننا لا نزال عند الخطوات الاولى واننا لا نستطيع بالتالي ان نتكلم عن الحرية.

وهذا ما دامت الايديولوجيا السياسية والاجتماعية بأسرها تتعارض مع ذلك .

وما دام الصبيان والفتيات لا يملكون مساكن يمكنهم فيها ان يتفادوا المزعجات والمنغصات ، ولا تتوفر لديهم مضادات الحمل لتجنب الحبل ، مثلما لا تتوفر لديهم المعلومات الاولية والاساسية عن متطلبات الحياة الجنسية ومصاعبها بوجه عام .

وما دامت تربيتهم تهيئهم وتعدهم سلفا للتخبط في صراعات خطيرة منذ ابتداء حياتهم الجنسية .

وما دام الصبيان والفتيات لا يختلطـــون في روابطهـــم وجمعياتهم .

وما دام متعذرا عليهم ان يقرروا بالتضافر مع معلميهم كيف ينبغي ان يتم تنظيم تأهيلهم واعدادهم لمهام الحياة الاجتماعية.

وما داموا يتعلمون تواريخ ولادة ملوك بروسيا ووفاتهم ، لا تاريخ الصبيان والبنات الاكثر ادقاعا والاشد حرمانا في ضواحي

برلين وهامبورغ وجوتربورغ ، وفي اباس اكواخ الفلاحين .

ان المثل الاعلى للشبيبة لا يمكن بحال من الاحوال ان يكون خدمة «الوطن» ما بصورة عمياء ، والموت في سبيل مصالح الراسمالية المصوّرة على انها هي عينها «مصالح الوطن» ، وانما مثلها الاعلى الوحيد ان تفهم حياتها بالذات وان تنظمها كما يحلو لها . ان الشبيبة لا يمكن الا ان تكون مسؤولة عن نفسها ؛ وانما على هذا الاساس وحده يمكن ان تردم الهوة التي تفصل المجتمع عن شبيبته . ويوم تفهم اسباب هذه الهوة ، ستفهم ايضا انها مضطهَدة ، وستغدو ناضجة للثورة الاجتماعية . ويوم تردم عمليا تلك الهوة ، وتعدّل النظام الاجتماعي طبقا لحاجاتها ، وتجد منفذا فعليا ، عينيا وموضوعيا ، لميلها الى الحرية ، ستكون قد اصبحت منفذة الثورة الاجتماعية .

ليس في وسعنا ان نبرهن نظريا لشبيبة جميع الاقطار على ضرورة الثورة الاجتماعية ، لكن في وسعنا ان نشرح هذه الضرورة انطلاقا من حاجات الشبيبة وتناقضاتها . وفي نقطة المركز من هذه الحاجات والتناقضات نلفى المسألة الحاسمة ، مسألة حياة الشباب الجنسية .

يبين العمل في اوساط الشباب ، بخلاف ما تزعمه عادة الاحزاب السياسية ، ان فهم الوضع الطبقي سطحي للغاية وغير مستقر لدى المراهق بوجه عام : فنادرا ما نصادفه بشكله الصحيح لدى المراهقين الناضجين كل النضج فكريا او المتحدرين من اسر لتمتع بقناعات ثورية ولم تجعلهم يتعرضون لاضطهاد . ان وضع التلميذ المتدرب مولد للفتور واللااكتراث اكثر مما يولد موقفا ثوريا . ولا يمكن ان يضحي هذا الوضع ايجابيا الا بالتضافر مع عوامل اخرى ، متعلقة بالوضع الطبقي ، كالحاجة على سبيل المثال الى اوقات فراغ افضل . بل ان الجوع عينه ، بخلاف التصورات الشائعة ، عامل من عوامل الحياة الهامشية وتشكيل العصابات اكثر

منه عامل وعي للوضع الطبقي . والجوع ، مثله مثل سواه من ضروب الحرمان ، يعض بانيابه ، فيمن يعض ، شبيبة «ف. هـ» او الشبيبة المسيحية . بيد ان هذه العوامل لا يمكن ان تصبح قوى ايجابية قوية الا اذا عقلت في علاقتها بعوامل اخرى موجودة لدى الشباب ، كالظمأ الى التجارب الرومانسية ، والحاجات الجنسية ، والتبعية للاهل . ولا مناص من أن ندرك ان الجوع وحده اذا لم يحطم المعنويات ويثبط العزائم نهائيا يدفع بالجائعين اكثر ما يدفع بهم الى أحضان مختلف منظمات البر والاحسان من النمط البورجوازي . وتظهر التجربة العينية ان الجوع حافز اشد فعالية بكثير لدى المراهق اذا ما اقترن ، على سبيل المثال ، بالخوف من التربية الموجهة التي يسهل على المراهق ان يرى فيها مؤسسة طبقية .

ان الميل الى التعلق بزعيم وبأفكار ليس له لدى الشباب معنى سياسي محدد ، بل هو قابل للاستخدام لصالح اي اتجاه ؛ وعليه فانه عامل ضار بالاحرى اذا لم يستعمله الحزب الثوري بروية ودراية .

ان حب الرياضة وحب الاستعراض والزي العسكري، اللذين يستهويان البنات (وبالعكس) ، والاناشيد العسكرية هي في الظروف الراهنة معوقات للحركة البروليتارية ، لان الرجعية السياسية تتمتع بقدرات اعظم على تنظيمها . ولكرة القدم بوجه خاص تأثير مباشر على اللاتسيس ، وفيها تشجيع بالتالي للميول الرجعية . لكن هذه الميول قابلة للانعكاس من حيث المبدأ ، وقابلة ايضا للاستغلال من قبل اليسار ، شريطة ان يتم التخلي عن الاطروحة القائلة بكلية قوة الجوع .

ان المنظمات الثورية لم تجد حلا لهذه التناقضات ، ولم تنم الميول الثورية وتطورها ، ولم تزح العقبات والمعوقات النفسية ؛ بيد انه لا يجوز ان نستنتج من ذلك غياب الشعور الطبقي ، بل

ينبغي بالاحرى أن نستنتج وجود ثغرات بسيكولوجية في العمل الثوري . هذا ما يؤكده ويثبته التقلب الذي لا يصدق في تعداد الاعضاء المنتسبين الى الجماعات الثورية ؛ فقلة قليلة هي وحدها التي تبقى فيها ، ولسنوات قليلة لا اكثر . انني لا أملك ارقاما ، لكن التجربة اظهرت ان الملايين من المراهقين والراشدين ، رجالا ونساء ، ومن مختلف الاوساط ، قد مروا بالمنظمات الثورية خلال العقد الاخير من دون ان ينضووا تحت لواء القضية الثورية ومن دون ان يتعلقوا بها . ما الذي دفع بهم الى المنظمة الثورية ؟ لم يكن هناك لا زي عسكري ، ولا مكسب مادي ، لم يكن هناك سوى قناعة اشتراكية مبهمة ، سوى شعور ثوري ، والحال ان المنظمة لم تعرف كيف تطورهما ، ولهذا لم يبقوا فيها . لماذا اصبحوا فيما بعد لامبالين ، أو لماذا اتجهوا نحو الرجعية السياسية ؟ لانه كانت كامنة فيهم ايضا بنية معارضة ، بورجوازية ، لم يتم تدميرها . لماذا لم يتم تدمير البنية الاخيرة هذه ، ولماذا لم يجر تشجيع تلك البنية الاولى وتطويرها ؟ لانه كان هناك جهـــل بما ينبغي تحبيذه وبما ينبغي تدميره . ولم يكن ممكنا الوصول الى ذلك بـ «الانضباط» المحض . ولا كذلك بالموسيقى والمسيرات . فهذه اشياء يعرف الآخرون كيف يفعلونها خيرا منا . ولا اخيرا بالشعارات التي لا ينجم عنها مفعول عيني ، لان ضوضاء الآخرين ولجبهتهم السياسية كانت افضل وأقوى . لقد كان الشـــيء الوحيد الذي تستطيع المنظمة الثورية ان تقدمه للجماهير من دون ان تخشى المزاحمة والذي لم تقدمه في الواقع ، الشيء الوحيد الذي كان يمكن أن يستوقف الجماهير التي كانت تتدفق ، وان يسترعي انتباه جماهير اخرى ويجتذبها ، هو معرفـة ما يرومه ويشتهيه عبد الراسمالية بنفسه من دون أن يكون على وعي صامح به ، وهو الجاهل ، المضطهَد ، المتطلع الى الحرية والى حمايـة استبدادية في آن واحد ، وصياغة ذلك والتعبير عنه بدلا منه ،

بلغته ، والتفكير به وتصوره بالنيابة عنه . لكن منظمة كانت ترفض كل بسيكولوجيا وتنبذها بوصفها مناهضة للثورة لم تكن ناضجة ولا مهياة لمثل هذا العمل .

كيف يتجلى اجمالا الوعي الطبقي لدى النساء ؟

لم تكن بذات جدوى كبيرة الصيغ القائلة ب «الدخول في عملية الانتاج» وبـ «الاستقلال عن الرجل» وبـ «حقها في جسدها» (ناهيك عن ان الامر لم يتعد في يوم من الايام تكرار هذه الصيغ). صحيح ان الرغبة في الاستقلال الذاتي الاقتصادي ، وفي وضع حد للتبعية للرجل ، وفي الاستقلال الجنسي بوجه خاص ، هي جوهر الوعي الطبقي لدى النساء . لكن الخوف من فقدان الزوج المقدم للطعام والكساء بنتيجة تشريع زواجي سوفياتي ، ومن عدم امتلاك موضوع جنسي مضمون قانونيا ، كذلك الخوف الذي يسيطر على جميع النساء من الحياة الحرة بوجه عام ، وقدرتهن الكبيرة على التعلق والارتباط ، الخ ... هذا كله يشكل عوامل سلبية ، كافة ، كابحة ، ذات قوة معادلة على الاقل . ولقد كانت واحدة من العقبات الكبرى أمام وضوح الرؤية السياسية تتمثل في خوف النساء، لا البورجوازيات الصغيرات بوجه خاص فحسب بل ايضا الشيوعيات ، من احتمال «انتزاع» اولادهن منهن بسبب التربية الجماعية التي يجري التفكير بانتهاجها ذات يوم ؛ ولم يكن هذا الخوف يتجلى بالطبع في الاجتماعات التي يعربن فيها عن تأييدهن لهذا الطراز من التربية، بل كان يتجلى في صورة منازعات بيتية مع الزوج وفي شكل كف وكبت سياسيين . لقد كان يفترض فينا ان نعلم ان التمرد على الزواج من حيث انه رابطة

اقتصادية وقيد جنسي كان يمكنان يتحول الى رافعة قوية للحركة الثورية لو اننا تناولنا بالتحليل الجدي والصريح والصادق هذه المسائل التي هي في منتهى الاهمية بالنسبة الى النساء . وبدلا من ذلك . كان الدعاة ، الذين لم تكن لديهم هم أنفسهم افكـــار واضحة ، يشوشون المسألة بكلامهم عـــن الزواج السوفياتي ، متباهين في الوقت نفسه بتعزيز اواصر الزواج من جديد فـــي الاتحاد السوفياتي ؛ وهكذا ما كان في وسع النساء المتوسطات الذكاء الا ان يجبن : «انتم تدعون هنا الى حل الزواج والاسرة ، لكن المرأة هناك باتت من جديد تابعة لزوجها» ، او بالعكس : «انتم تريدون اباحتنا جميعنا للرجال» . ولقد كانت أشباه هـــذه التناقضات تستأهل الدراسة العلمية الدقيقة من قبل الجماعات المتخصصة في علم النفس ، كما كانت تتطلب حلا في منتهـــى الوضوح والدقة من جانب المنظمات السياسية . وهذا امر لم تكن له أهميته بالنسبة الى عاملات الصناعة وحدهن ، وهن اللواتي انضجهن العمل في المصنع وتعزز اتجاههن الى اليسار ، مع ان الاحتكاك بهن كان واهنا مثله مثل الاحتكاك بالاخريات ، وانمـــا ايضا ، وبوجه خاص ، بالنسبة الى الغالبية العظمى من ربـــات البيوت ، ومن المستخدمات في البيوت ، والبائعات ، الخ ... وتدلنا تجربتنا ان الرباط غير الزوجي او الرغبة في مثل هـــذه العلاقة عامل قمين باطلاق حركة قوية من عقالها ضـــد المؤثرات الرجعية . لكن نظرا الى ان الحنين الى الامان الزوجي غالبا ما ينضاف الى تلك الرغبة ، فليس من الممكن ان تتطور هذه الحركة بمجرد الغاء الفارق بين الزوجي واللازوجي الغاء شكليا على نحو ما فعل التشريع السوفياتي . ان الكثيرات من النساء ثوريات في المصنع ، رجعيات في البيت . ويكمن هذا قبل كل شيء في افكار اخلاقية وثقافية معاكسة للمصالح الاقتصادية والجنسية . وتدلل الحركة النسوية القائمة في منظمات بورجوازية شتى على دوافع

ثورية قوية تنزع عن وعي الى الاستقلال الذاتي الاقتصادي ، وعن غير وعي الى الاستقلال الذاتي الجنسي ، وعلى كل حال الى التغيير ، الى تحويل الوضع الراهن . ان الاشتراكية هي وحدها التي تستطيع ان تأتي بجواب عملي على هذه المسائل ، لكن الاشتراكيين لا يحركون ساكنا ولا يبذلون جهدا لتوضيح افكار النساء الغامضة ، المبهمة ؛ لافهامهن أنهن يطلبن في آن واحد اشياء متناقضة ، وانهن يستشعرن اهدافا أشتراكية لكنهن لا يستطعن ان يصغن هذه الاهداف بوضوح ودقة ، وانهن يندفعن بالتالي الى تمرد عاطفي او الى بانكهورست (١) . ان شيئا ما لن يشرع بالحركة الا اذا طرحت على بساط البحث تلك الشؤون الصغيرة التي لا تقع تحت حصر من الحياة الشخصية وسلط الضوء على صلاتها بالحياة الاجتماعية ؛ ومن الممكن عندئذ ان ترى النور مناقشات ، وان تكون الغلبة في هذه المناقشات لاولئك الذين لديهم شيء يريدون ان يقولوه ؛ وهؤلاء لا يمكن ان يكونوا سوى الاشتراكيين ، شريطة الا يقعوا في المشادات الحزبية الشكلية . ولو جوبه الرجعي بشروح وتفسيرات مناسبة لكان مآله الى الفشل الذريع . فقد تطورت بين النساء الالمانيات ، في نهاية ١٩٣٣ ، حركة جديرة بالاعجاب وكبيرة النفع ، يمكن لهن فيها ان يتعلمن الجدل (الديالكتيك) خيرا من تعلمه في الكتب . وهن يرفضن وضع المرأة في البيت ، وهذا عامل ثوري ، لكنهن يردن بدلا من ذلك ان «يكن" نساء المانيات مناضلات مثل برونهيلد» (٢)،

---

١ ـ ايملين بانكهورست (١٨٥٨ ـ ١٩٢٩) من رائدات الحركة النسوية الانكليزية ، اسست في عام ١٩٠٨ «اتحاد النساء الاجتماعي والسياسي» الذي مثل الجناح اليساري في حركة مناصرة حق النساء في الانتخاب .

٢ ـ اميرة من العصور الوسطى خاضت صراعا ماجدا ، وانتهت حياتها بصورة مفجعة بسبب الخيانة . ـم ـ

وهذا في شكله الراهن رجعي . ان علينا ان نتبين بوضـــوح ان ايديولوجيا الأم ، التي يروج لها النازيون بجميع الوسائل ، هي من طبيعة معادية للجنس : فان تكون المراة اما يتعارض مع كونها حبيبة . والنسـاء يردن الشيئين معا ، لكنهن لا يجدن من مخرج للتناقض الذي تختلقه الاخلاق الراسمالية بين الشيئين ، فينكرن انفسهن تحت ضغط الرجعية السياسية من حيث انهن كائنات جنسية . وحركة مناصرة المراة ، التي هي في شكلها الراهـــن حركة رجعية موجهة ضد الشعور الطبقي، قابلة للانعكاس بسهولة، لانها عامل من عوامل التغيير . وينبغي ان نلاحظ انه من النادر نسبيا ، لدى النساء ايضا ، ان يتولد موقف ثوري عن الجوع في ذاته وعن هم اطعام الاولاد ؛ وانما يتولد عن ذلك في احيان كثيرة الخوف من السياسة بوجه عام ، ومعارضة النشاط السياسي الذي قد يقوم به الزوج والاولاد ، وكذلك آللاآكترات او البغاء . ومن الممكن ان تصبح هذه الهموم والهواجس محركات رئيسيـــة للوعي الطبقي فيما اذا وضعت في موضعها الصحيح ضمن سياق علاقاتها الحقيقية بالقوى الاخرى الفاعلة في الاتجاه نفسه او في الاتجاه المعاكس . انها لمسألة في منتهى الصعوبة ، على سبيل المثال ، ان نعرف ما اذا كان الدلال والاهتمام بالجمال الجسماني، اللذان يؤلفان اليوم عقبة كاداء امام الفكر والشعور الثوريين ، قابلين للقلب بشكل من الاشكال . اننـــا لا نحسب انه في امكان اي منظمة من المنظمات الثورية ان تفلح في تلقين جمهرة النساء البساطة ورفض الغنج اللذين تتحلى بهما اليوم النساء الشيوعيات. وبين الاخذ بالترهات البورجوازية والاخذ بنمط حياة زهدي ، يجب ان نجد الطريق الذي يأخذ بعين الاعتبار مقتضيات الصراع الطبقي وحاجات الجمال الطبيعية على حد سواء . ان ساستنا يرفضون ان يصدقوا ان هذه الامور تستاهل المناقشة . ولهذا ندعوهم الى دراسة الاوالية التي بفضلها تبقي الرجعية السياسية

على النساء في معسكرها . ومما لا جدال فيه ان مسألة مستقبل الاسرة وتربية الاولاد هي اهم المسائل بالنسبة الى حركة مناصرة المرأة . ولقد كان نشاط المنظمات السياسية الجنسية الالمانية في تفسير حقيقة ان الاشتراكية تعطي اشكالا اخرى للحياة المشتركة للرجل والمرأة والولد ، وبوجه خاص في تفسير حقيقة ان مـــا يسمى بتدمير البلشفية للاسرة انما يعني استقلال المصالح الجنسية من الروابط ألاقتصادية ، كان ذلك النشاط عظيم النجع والجدوى في اكتساب النساء لقضيتنا . ان التطور الراهن للايديولوجيـا العائلية في المانيا يستأهل اعظم الانتباه والاهتمام ، وعلى سبيل المثال ما يتعلق بالتناقض بين ألاسرة وبين الخدمة في «ف. هـ» بالنسبة الى الشباب. ودراسة هذا التطور دراسة دقيقةمستفيضة هي التي ستتيح لنا الوسائل لسياسة نسوية ناجعة فعالة . ونظرا الى ان البغاء يتزايد على نحو محتوم في ظل الفاشية ، تحت تأثير الضغط الاخلاقي ، فان اكتساب البغايا لقضيتنا يؤلف ايضا جزءا من السياسة البروليتارية من عدة وجوه .

ان العديد من ألوقائع في المانيا تتيح لنا ان نتبين ما اذا كان الوعي الطبقي او مقدماته قائمة بين السكان وكيفية ذلك ، ومـا ينبغي على القيادة الثورية ان تفعله . لقد اتينا بذكر «حركـــة برونوهايلد» التي من خلالها تتمرد النســاء بشكل مبهم غامض على العودة الى البيت وعلى العبودية الزوجية . لقد اضطر غوبلز ، مؤخرا ، الى تحديد موقفه حيال مسألة هي في غاية الصعوبـــة بالنسبة الى القومية ـ الاشتراكية. فبعد ان استولى «حزب عمال المانيا الاشتراكي ألقومي» على مقاليد السلطة ، شدد الى حد كبير من قبضة القوانين التي تحظر الاجهاض وتحاشي الانجاب ، وعهد بتربية الاطفال بتمامها الى المنظمات الدينية والعسكرية ، واعلن ان الاسرة هي قاعدة الامة والدولة ، وشهر المبدا القائل ان «المرأة الالمانية لا تدخن» ، وكافح قصة الشعر الغلامية ، واعاد فتـــح

ابواب المواخير ، وطرد النساء من المصانع ، واعطى الرجل من جديد سطوة شبيهة بتلك التي كانت له في عهد ما قبل الطوفان، كما منحه اشياء اخرى كثيرة . وهكذا أطلق العنان ، انسجاما مع وظيفته التاريخية ، لردة ثقافية رجعية شرسة . ولا يداخلنا ريب في ان العديد من الكوادر وضعت هذه التدابير موضع تطبيق بحرفيتها وحذافيرها . ففي واحدة من المدن الصغيرة نشر معمل للصابون أعلانا يصور فتاة جميلة تمسك بصرة من مواد التنظيف باليد . وقد منع مسؤول نازي هذا الاعلان ، بحجة انه يصدم «حس السكان الاخلاقي» . وقد ارغمت أشباه هذه الوقائع غوبلز على رفع صوته احتجاجا على «رقباء الاخلاق العديمي الكفاءة وعلى رسل الحشمة الكذبة» . وقد رفض التطرف في الاحتشام ، وانحى باللائمة على أولئك الذين يريدون ان ينشئوا في المدن والارياف لجانا للحشمة لن يكون من شانها ، لو قامت ، سوى ان تفضي الى الرياء والنميمة والتشهير . وقال : لقد باتت النساء يخشين الخروج او الذهاب الى المطعم بمفردهن ، والخروج مع شاب بدون رفقة ، وارتداء أنيق الملابس ، الخ ... وبالحرف الواحد : «... واذا دخنّ سيكارة ضمن نطاق الاسرة او بصحبة الآخرين ، فلا يجوز لنا ان ندينهن على ذلك وان ننبذهن» . ان القومية ـ الاشتراكية ليست حركة تقوية (١) ، ولا يجوز تجريد الشعب من فرح الحياة ، بل ينبغي ايلاء الحياة المزيد من الاهتمام، والتقليل من الرياء ، وانتهاج طريق الاخلاق لا طريق التزمت الاخلاقي . ما معنى ذلك ؟ ماذا ينبغي أن نفهمه من هذا الخطاب ؟

اولا ، ان السياسة الثقافية القومية ـ الاشتراكية قد اثارت امتعاضا شديدا لدى النساء ، وإلا لما تكلم غوبلز على هذا النحو .

---

١ ـ التقوية شيعة بروتستانتية المانية .

ثانيا ، أن هذا الامتعاض اخذ أبعادا كبيرة ، وإلا لما تدخل غوبلز ، مثله مثل روهم من قبل ، في عكس اتجـاه القومية ـ الاشتراكية وايديولوجيتها . فالقادة النازيون في غاية البراعة في علم النفس الجماهيري ، وهم يؤثرون ان ينتهكوا مبدأ من مبادىء رؤيتهم للعالم على ان يعرضوا للخطر أساس سلطتهم .

ثالثا ، ان غوبلز **ليس لديه ما يقوله** ، لا يفهم ولا يستطيع ان يحل التناقض الذي تتخبط فيه القومية ـ الاشتراكية بايديولوجيتها الرجعية حين تواجه أنصار الثورة ، وهذا في الميادين طرآ .

رابعا ، ان المسألة هنا هي الى حد ما مسألة شكل مبهم ، مشوب ، من الوعي الطبقي الاشتراكـــي ، كان يمكن للنشاط الاشتراكي ان يضعه نصب عينيه وان يستفيد منه لو انه بـدأ بتوضيح المشكلة لحسابه الخاص . فمشكلة علم النفس الجمعي هي **تعزيز الشعور الثوري لدى انصار النازيين** من خـلال لفت أنظارهم الى النتائج الرجعية لسياسة هؤلاء الاخيرين ، وكذلـك الكشف لعضو الحزب الاشتراكي ـ الديموقراطي عن كبتـه **البورجوازي الصغير** ، وبوجه عام تسليط ساطع الضوء علـى التناقضات ، بدلا من ان نرى في عضو «ف. هـ» مجرد رجعي ، وفي عضو الحزب الاشتراكي ـ الديموقراطي مجرد ثوري «لا يرى الامور بكامل الوضوح بعد» .

خامسا ، لن مثل هذا التدخل من جانب غوبلز يبعث الحياة من جديد في العقيدة القومية ـ الاشتراكية لقدامى الاتباع الذين آلت بهم الحال الى التردد ، ويعيدهم الى معسكرهم السابق ، ويثبط في الوقت نفسه همم المعارضين السافرين ، اذا لم نثبت **بصورة عينية** ان المشكلة بأسرها لا حل لها في ظل الرايخ الثالث . فأين وجه استحالة هذا الحل ؟

ان توطيد ركائز الاسرة وإلزام المرأة بيتها يقتضيان تدابير كتلك التي اصاب النازيون اذ اتخذوها، لكنهما يناقضان مطلق المناقضة

تقريظ الحياة الهادف الى التخفيف من حدة الامتعاض والتمرد . ناهيك عن ان العنصر المركزي في الايديولوجيا النازية هو اخلاقها (الشرف ، الطهارة ، الخ ...) . ولو وجد في الاجتماعات شخص على درجة كافية من التبصر ليسأل بم تتميز الاخلاق عينيا عن التزمت الاخلاقي ، لحل بكل مسؤول نازي حرج شديد . وكان يكفي في هذه الحال صياغة السؤال بشكل عيني . وعلى سبيل المثال : ان منع المرأة من الخروج مع شاب هو من قبيل التزمت الاخلاقي ، لا من قبيل الاخلاق التي تتطلبها القومية ـ الاشتراكية؛ وعليه فان خروجها بمفردها يجب أن يكون مباحا في هذه الحالة. وكيف الحال حين يقبّل شاب المرأة ؟ أهو تزمت اخلاقي ام اخلاق؟ واذا كان يشتهي ، فضلا عن ذلك ، ان تكون له علاقة غرامية بها؟ لكن ذلك هو من قبيل فرح الحياة ، اليس كذلك ؟ واذا ارتضى القومي ـ الاشتراكي ، عند هذه النقطة ، بتضحية اخرى ، وسلم حتى بالحب الحر ، وهو امر نحسبه قادروا عليه كل القدرة ، فمن الممكن في هذه الحال ان نسأله اذا لم تكن مثل هذه الاباحة تنزل الضرر بمتانة الزواج وصلابة الاسرة ، وأن نسأله كذلك عما سيحل بالاطفال الذين قد يولدون من ذلك الحب . واذا ما قبل صاحبنا النازي بذلك وشرح ان الطفل لا يكون طفلا الا اذا كان سليـــلا للآريين (١) ، فسيكون في ذلك مسوغ لسؤال آخر ، سؤال لمعرفة ما اذا كان من المفروض ان تكون نتيجة كل فعل حب هي الحمل؟ واذا كان الجواب بالسلب كان من حقنا ان نسأله ماذا ينبغي فعله في هذه الحال ، الخ ... ولن يماري احد في ان مثل هـــذه المناقشة العلنية يمكن تنظيمها في أشكال ليس لها البتة طابــع

---

١ ــ معلوم ان النازيين كانوا يعتقدون ان العرق الآري المزعوم هو الشكل الاسمى للانسانية ويتمثل بالالمان . ــم ــ

سياسي ، كما لن يماري في انها ستكون أشد احراجا للنازيين من آلاف المناشير السرية ، وهذا لسبب بسيط وهـو ان النازيين انفسهم سيقومون في هذه الحال بالدعاية لحسابنا عن دون علم منهم . أليس هناك وعي طبقي ؟ اننا لنلفاه في جميع منافذ الحياة اليومية . أفسيكون من المستحيل علينا تطويره ، لاننا سنذهب في هذه الحال الى السجن ؟ خذوا الاسئلة التي تحاصر عن قرب كل نازي ، تلك الاسئلة التي لا تستطيع الرجعية جوابا لها ، ولن تكون بكم حاجة الى امعان الفكر في مشكلة الوعي الطبقي . دور الطليعة في اللاشرعية ؟ الحق انه يكمن ههنا ! في المضامين العينية للديموقراطية البروليتارية ، لا في مصطلح الديموقراطيـة البروليتارية او شعارها الذي لا يمثل شيئا ملموسا لمس اليـد بالنسبة الى ٩٠ بالمئة من الافراد . وفي وسعنا ان نجـد آلاف الامثلة ، في شتى الميادين ، التي تدل على انه ليس باستطاعة النازيين ان يجدوا جوابا لمشكلة واحدة اذا ما طرحت طرحا عينيا ومنطقيا بكل مستتبعاتها ، سواء أكانت مشكلة الدين ، ام مشكلة النقابة ، ام مشكلة علاقة رب العمل بعماله ، ام مشكلة مصير الطبقات المتوسطة ، الخ ... والمطلوب طرح الاسئلة النموذجية التي تستأثر باهتمام الناس قاطبة ، من دون برنامـج مسبق ، انطلاقا من حياة البشر وردود افعالهم العفوية. وليس امام القيادة الثورية اليوم من مهمة أهم من اكتشاف النقاط الضعيفة فـي القومية ـ الاشتراكية ، وتنظيم المناقشات بين الجماهير بحيث تتعذر لفلفتها ويكون لها على العكس امتداد واستطالة من دون ان يترتب على ذلك خطر فعلي . ان الثورة لا يمكن ان تنمو وتتطور الا انطلاقا من تناقضات الحياة الراهنة ، لا انطلاقـا من المداولات والمساجلات حول التناحرات الاميركية ـ اليابانية أو من النداءات والدعوات الى المظاهرات والاضرابات التي لا يسع انسانا مـن الناس ان يقوم بها على الوجه المرام . كما لن تنمو وتتطور بمجرد

الاكتفاء بدمغ النازيين بأنهم مجرمون وساديون ، وانما فقط من خلال مواجهة ارادتهم الذاتية بعجزهم عن حل المشكلات .

لسنا ملزمين هنا بالتشبث بإثبات صحة افكارنا بنسبة ١٠٠ بالمئة او بقابليتها للتطبيق بنسبة ١٠٠ بالمئة او لا . فالصحة ينبغي اثباتها على محك الممارسة. يكفينا ان نبحث بعناية كبيرة عما يجري في الواقع ، عما يستأثر باهتمام الجماهير العريضة ، عما هو منبع للتناقضات بالنسبة الى الرجعية . ان نظرية من النظريات لا يمكن ان تكون جاهزة ، ناجزة ، بتمامها منذ بداية العمل ، بل هي لا تستطيع ان تتطور وتتطهر من اخطائها الا في مجرى العمل والممارسة . وهذا ينطبق بالطبع على استعراضنا الاجمالي للعناصر العينية التي يتكون منها الوعي الطبقي وللعوامل التي تعيقه .

لدى الرجال الراشدين

ان العمل الجماعي في المصنع او في المنشاة هو بلا جدال اهم منبع للشعور الطبقي . لكن ان يكون المرء بروليتاريا وان يعمل في مصنع او في منشأة ، وحتى ان يكون نقابيا ، فهذا لا يعني انه يمتلك الوعي الطبقي ، بالرغم من ان عمله في المصنع وانتماءه الى النقابة شرط ضروري لامتلاك الوعي الطبقي . وإليكم البرهان : ففي المانيا يقوم عمال كثيرون ممن كانوا ينتمون في السابق الى النقابة الحرة بجمع المال لصالح «منظمة العمل القومية الاشتراكية» (١) ، على نفس النحو الميكانيكي الذي كانوا يجمعون به المال للنقابة الحرة ، سواء أفكروا في ذلك ام لم يفكروا . فحين

---

١ ـ هي النقابة النازية كما راينا . ـم ـ

يصير الانتماء الى النقابة في دم الشغيل بالذات كما هي الحال بالنسبة الى الالماني ، فكثيرا ما يتأثر الوعي **بطبيعة التنظيم** . ان الدعاية القومية ـ الاشتراكية عن «إجلال العمل» وعن «تساوي رب العمل والعامل» وعن وحدة المنشأة ووحدة الامة ، تتيح امكانية تنويم الشغيل المتوسط بسهولة ؛ ولاسيما ذاك الذي كان قد تبنى النظرية الاشتراكية ـ الديموقراطية عن الليبيرالية الاقتصادية . فهو على درجة من الاستعباد العقلي يشعر معهما بالنشاط والانتعاش قد دبا فيه بمجرد ان يلتقي بمن يؤكد له انه «عضو كامل الحقوق في الامة» ، ولاسيما حين يستلم زيا مهنيا موحدا . ان من يستهين بالقوة المادية للايديولوجيا يجانب جادة الصواب . فقد اتضح انها اقوى ، في مرحلتنا التاريخية الراهنة، من ضغط الحاجة المادية ؛ ولولا ذلك لما كان هتلر وتيسن هما اللذين يتربعان الان على سدة السلطة ، وانما العمال والفلاحون بدلا منهما . ويعلم القوميون ـ الاشتراكيون حق العلم الثمن الذي ينبغي دفعه لاجتذاب العامل . وقد قدروا تقديرا صحيحا دقيقا اهمية الهدية الايديولوجية التي ينبغي تقديمها للشغيلة حتى يمكن اضفاء صفة قانونية على حق من حقوق العمل على شاكلة القانون الصادر في كانون الثاني ١٩٣٤ . وهم على درجة كافية من الفطنة ليدركوا انه لا يمكنهم ان يصدروا مثل هذا القانون من دون ان يقضوا على انفسهم بالانتحار ، لولا انهم اكتسبوا ، **قبل ذلك** ، تأييد الشغيل الايديولوجي العميق لرؤيتهم للعالم . لقد نظم لاي(١) تهيئة ايديولوجية على مدى عدة شهور قبل اصدار قانون العمل. واذا ما اخذنا الذهول ازاء فظاظة القانون الفائقة ، هذا القانون

---

١ ـ الدكتور روبير لاي : مدير «جبهة العمل» ، وكان من كبار الموظفين النازيين . ـمـ

الذي يجرد العامل تمام التجريد ، متناسين اننا نراه بالعين اخرى وانا نحس به على غير النحو الذي يحسه به العامل المعد اعدادا ايديولوجيا ، فلن نعبر الا عن افكارنا وتناقضاتنا الذاتية حين سنتوجه اليه بالخطاب ، اي لن نعبر عن افكاره وتناقضاته هو نفسه . ومن الواجب ايضا ان يتقدم عملنا الثقافي عمل ايديولوجي مدروس بروية وامعان ، مستند الى معرفة وثيقة بالتشويهات الايديولوجية التي يعاني منها العامل . ان العامل يحس احساسا عميقا بالعمل الذي هيء ومورس ضده ، لكنه يجد مباشرة في متناوله افكارا ومشاعر تتيح له الا يعي كل خطورة موقفه الذي لا سيطرة له عليه ولا سيادة ، وبذلك يقع ضحية للاوهام . ان كيس البطاطا الذي قدمه هتلر هدية كان ذا هدف ايديولوجي بنسبة ٩٩ بالمئة وذا هدف عملي بنسبة ١ بالمئة . وكذلك الحال فيما يتعلق بتخفيض سعر المواصلات في المدن ، الخ ... والعامل الذي تمرس بصراع الطبقات لن يدع احدا يستغله ويخدعه بسهولة، بيد ان الكثيرين الكثيرين من الآخرين طاطؤوا الراس ورضخوا . ان اقلية منهم هي وحدها المتمرسة ؛ اما الغالبية فلم تعلن قط اضرابا وذلك بفضل سياسة النقابة الحرة ؛ ولم يعد هناك اعداد كبيرة من العمال «الخطرين» في المصانع والمنشآت . وحتى لو شعر العامل بما يترتب على ذلك القانون ، فانه يجد نفسه بلا توجيه ولا قيادة، فترغمه الحاجة على ان يعلل نفسه بالاوهام ، فيتصور ان نيات هتلر طيبة بالرغم من كل شيء ، وانه قد «فعل ايضا شيئا ما لصالح العامل» . انه يتقبل الصدقة من دون ان يعي انه في الواقع سيد الانتاج ، وانه ليس في الامكان اهداؤه اي شيء كان . واذا ما تبلد ذهن العامل بالفكرة القائلة ان «كيسا من البطاطا خير من الارتماء على قارعة الطريق بلا مأوى ولا عمل» ، فلن يخامره الغضب من فكرة ان رب العمل ، وهو المواطن «المعادل» له ، يجني من المنشأة دخلا يفوق دخله بالف مرة . واذا سألنا انفسنا كيف

تعيق صدقة كيس البطاطا تمرده الطبقي ، أمكننا أن نلاحظ ان **مسؤوليته العائلية** هــي ذات الشأن الاول ههنا . انــه لمن المستحيل اقتياده الى الشعور الطبقي بمجرد تحريضه علــى الاضراب، كما يفعل المحدودو الافق من الناس الذين يجهلون حالته النفسية والذهنية ، او بمجرد تحريضه على الانتساب الى نقابات مذمومة ، سرية ، تواجه تهديدا خطيرا ؛ لا ثقة له بها . فالمفروض ايضا بالعامل الثوري ان يكون موجودا في «منظمة العمل القومية ـ الاشتراكية» وان يظهر لزميله انه يفهم مشكلاته السرية وغير المعبر عنها ؛ وان يبين له بوجه خاص انه يقمع في داخله تمرده ويحظر على نفسه التعبير عنه ، بسبب همومه العائلية . ان ثمة مشكلات يكاد المرء لا يعيها ، لكنها مشكلات نمطية وتمس ملايين الشغيلة بلا تمييز . وكما ان المشكلة النمطية والغالبة بالنسبة الى الشغيل الشاب هي ، علاوة على الاجر ، مسألة السكن والفتيات ، كذلك فانها بالنسبة الى الشغيل الراشد مسؤوليته العائليـــة التي لا نستطيع ان نخلط بينها وبين الارتباط العائلي البورجوازي . فحين يقال له : «قم بالاضراب» ، لا يفهم ما المرام ، او يكتفي بأن يدير ظهره . لكن اذا ما جرى افهامه (ونحن نتحدث هنا بخطوط مريضة) بأنه في حيرة من امره ، يتأرجح بين التراخي وبين تمرد غير معبر عنه ، وهذا على وجه التخصيص لانه لا يعرف هل هتلر خادم لارباب العمل او زعيم قومي نزيه تعمر قلبه الرغبة فــي الاهتمام بالجميع كما يوحي بذلك كيس البطاطـا ؛ واذا ما جرى افهامه بأنه يرخي العنان لنفسه ليقع بلا تحفظ تحت تأثير الخطابات والمهرجانات ، نكون قد دللنا في هذه الحال على اننا فهمنـــا احاسيسه المباشرة ، ونكون قد اثبتنا ايضا اننا ثوريون حقيقيون لاننا نكون قد جندنا شغيلا جديدا ، ان لم يكن للاضراب حالا ، فعلى الاقل للغد بكل تأكيد ، وليس لهذا من شرط سوى ولادة بؤر مماثلة للتفهم البسيكولوجي في الاحيـاء والمدن والاقاليم ،

وسوى التراكم المكثف للشعور بوجود اشخاص يعرفون بدقة ما يفعم كل فرد وما يثير اشمئزازه وما يجعله يتردد ويتذبذب ، وما يحفزه ويكبح جماحه في آن واحد . ولن تكون هناك من ضرورة لتوزيع منشورات سرية من هذا النوع وتحمل المشقات في سبيل ذلك ، لانها ستتخاطف تخاطفا . ولن يكون واجبا على محرريها ان يعملوا تحت وطأة الشعور بعدم الفلاح والنجاح كما هي حالهم حين يصرون على الكلام عن الخداع وسوء المعاملة ، بل سيخامرهـم الشعور بالتماس المباشر مع العامل اللامبالي الذي يتوجهون اليه بالخطاب . وبذلك نكون قد استغنينا بالحقيقة عن الدعاية المليئة بالاوهام ، وبالسيطرة الفعلية على الموقف عن اللجبة السياسية التي لا طائل تحتها ولا جدوى .

ان لمن الوقائع الصغيرة ما هو افصح وابلغ دلالة من الاحداث العظيمة . اليكم واقعة عديمة الدلالة ظاهريا ، لكنها تبين مـا اقصده حين اتكلم عن الشعور الطبقي وعما يعيقه ، وحين أؤكد ان الايديولوجيا الجنسية البورجوازية تمثل عامل الكف والكبت الاكثر تواترا . ففي سكة حديدية محلية في النمسا ، طفق بعض العمال والفلاحين يتحدثون عن السياسة والحياة الخاصة وقصص النساء. وقال عامل شاب ، متزوج على ما يبدو ، ان القوانين رديئـة الصياغة حقا . واضاف بانها مسنونة للاغنياء ، ولا نفع منهـا للفقراء . وقد اعرت هذا العامل المحبو بالوعي الطبقي سمعـي لاتبين ما يريد ان يقوله . وتابع يقول : «على سبيل المثال ، قانون الزواج . فالقانون يقول ان الزوج يستطيع ان يضرب امراته . لكن الاغنياء هم وحدهم الذين يستطيعون ذلك. فلو ضرب فقير زوجته لما نجا من العقاب» . وليس من المهم ان يكون ذلك صحيحا او غير صحيح ، ولكنه فصيح الدلالة على كل حال بالنسبة الى ذهنية العامل المتوسط . فهو يحدد موقعه ومكانه نسبة الى الغني ، ويحس باللامساواة . ومن هذا المنظور ، يتبنى بالفعل وجهة نظر

طبقية ولكن ليس احلى على قلبه من ضرب زوجته ، كما يبيح له القانون ذلك . ومن هذا المنظور ، يشعر انه مهضـوم الحقوق ، وذلك بصفته عضوا في طبقته . ان الاخلاق الجنسية البورجوازية تتعايش مع الوعي الطبقي لدى العامل عينه . وادهى العقبات التي تعيق تكوّن الوعي الطبقي لدى جميع اعضاء الاسرة ينبغي ان تُعزى الى حق الملكية الجنسي الذي تهبه الدولة الطبقية للرجل ، والى سلطته على المراة وعلى الاطفال . ووظيفة هذه العقبات والعوائق تطويع جميع اعضاء الاسرة ، وربط الانسان بالنظام البورجوازي، وحمله على ان يرفض عن وعي او غير وعي كل عمل سياسي ، الخ ... وليست هذه المسالة بذات طبيعية أخلاقيـــة ، وانما سياسية ، ولا تمكن معالجتها الا بصفتها مسألة سياسية . بل ينبغي أن تحتل مكانة الصدارة في الدعاية الثورية ، لا ان تبقى في المؤخرة كما هي الحال حتى اليوم . ولعلنا نطرق بذلك مضمار الحياة الخاصة الذي له من الاهمية ومن التاثير السياسي اكثر مما لاي مضمار آخر . ومن الممكن مقارنة فاعليته الرجعية فـــي البروليتاريا بفاعلية مخيمات العطل وحركة الحدائق العمالية من حيث انهما أشكال للسياسة العائلية لدى البورجوازية الصغيرة . ومن العوامل الاخرى النافية للوعي الطبقي ، الكافة له ، الروابط الذكرية وحياة الخمارة والملكية الصغيرة ، ولاسيما في اوساط البورجوازية الصغيرة . فقد كان صغار المالكين على علم بـأن الثورة لن تمس الملكية الصغيرة دفعة واحدة . ثم ان الوصولية ، وتقمص شخصية المنشأة ، والكبرياء التي تخامر العامل اذ يرى المنشأة الراسمالية تزدهر ، وشاغل الامان الاقتصادي لـــدى الموظف والمتقاعد المقبل ، تفعل فعلها على الدوام ضد تكوّن الوعي الطبقي ، اذا لم ياخذ الحزب الثوري موقفا ايجابيا وفي منتهى الوضوح ازاء هذه المسائل كافة ، واذا لم يجد اجوبة عينية ، تصح بالنسبة الى جميع الفئات الاجتماعية ، للاسئلة التاليـــة : إلام

سيؤول بعد الثورة بيتي الصغير ، حديقتي العمالية ، ترددي على الخمارة ، على نادي البولينغ ، سلطتي على زوجتي واولادي ، حقي في التقاعد الذي انا عظيم الفخر به ؟ ان هذا التعداد العيني يظهر لنا الخطأ الفادح الذي نرتكبه اذا حددنا سلفا دور السياسة الجنسية ومكانتها . فهي ليست السياسة الوحيدة التي يمكن ان نعارض بها الرجعية ، على نحو ما يندفع انصار السياسة الجنسية دفعا الى ان يدّعوه ، كما انها ليست مشكلة صغيرة من مشكلات المذهب السياسي في المضمار الجنسي ، وانما تتوزع بالاحرى الى مشكلات حياتية عينية تؤلف هنا عاملا موائما للوعي الطبقي ، كما هي الحال لدى الشباب ، وتؤلف هناك عقبة تعيق تكوينه ، كما هي الحال لدى المراة المتزوجة ، الخ ... ان السياسة الجنسية ينبغي ، بالحتم والضرورة ، ان تؤلف جزءا من العمل الثوري ، له صلة وثيقة بالمشكلات غير الجنسية ، كالمشكلات الاقتصادية او التقنية الخالصة ، وغير منفصل عنها الا بقدر ما تفصله الحياة عنها .

لدى الطفل

كيف تتجلى العوامل الموائمة وغير الموائمة للوعي الثوري لدى الطفل ؟

لقد كانت سياسة الطفولة على الدوام واحدة من نقاط الضعف في المعسكر الثوري (١) . ونحن لا نؤمن البتة ، كما يتهمنا

---

١ ـ قبل رايش بسنوات قليلة ، فصل عالم التربية الشيوعي اوتو روهل من الحزب الشيوعي الالماني . «م»

بعضهم ، بأننا نعرف كل شيء ونستطيع ان نجد حلا لجميع المسائل دفعة واحدة . كل ما فعلناه هو اننا لفتنا الانظار الى بعض الوقائع التي ينبغي متابعة تحليلها ، ومطلبنا الوحيد من رفاقنا في النضال الا يوجهوا انتقاداتهم بصورة ميكانيكية ، والا يكتفوا بالكلام عن اللينينية ، بل ان يفسروها على وجهها الصحيح من خلال «تعلم المزيد فالمزيد دوما» ، وأن يمحصوا كل شيء من جديد ، وأن يفهموا كل شيء من جديد . لقد سبق لي أن قلت ان السياسة البروليتاريا في مضمار الطفولة مجردة اكثر مما ينبغي، غير متكيفة مع الاطفال ، وانها تجهل بوجه خاص ـ باستثناء بعض المربين المشهود لهم بالحصافة ـ الافكار والمشاعر التي تراود الطفل . ولا يسعنا هنا الا ان نكتفي بتقديم بعض التوجيهات ، من دون ان ندخل في التفاصيل ، محيلين التحقق المادي من صحتها الى الهيئات والاجهزة المعنية .

صحيح ان الجوع ، اي نقص التغذية الفعلي ، لدى الطفل تجربة قمينة بأن تحفر في ذاكرته الهوة التي تفصله عن «الطفل الغني» ، ولكن ليس في ذلك بحد ذاته شيء من الثورية . فالجوع لا يضرم فتيل الحقد على المالكين بقدر ما يحرك مشاعر الغيرة والهوان وحافز السرقة ، كما نلاحظ على سبيل المثال بين عصابات الاولاد المتشردين . واذا اردنا ان نقيم سياسة الطفولة على اساس الجوع الفعلي ، فلن تكون القاعدة التي ستتوفر لنا الا في منتهى الهشاشة ؛ لانه سيكون من الواجب علينا في هذه الحال ان نصل الى كل جمهرة الاطفال الذين يرزحون فعلا تحت نير الجوع . أضف الى ذلك ان الفاقة ليست مطلقة ، لكنها نسبية على الدوام نسبة الى من يملك اكثر . ينبغي اذن ان نولي اهتمامنا للغيرة والتقشف الناجمين عن الحرمان المتواصل ، لانهما يؤلفان عائقا امام الشعور الثوري . وتدل الملاحظة على ان الدافع الغريزي الاقوى الذي يحفز الطفل نحو القناعات الثورية هو التشبه بالاخوة

والاخوات الاكبر سنا او بالوالدين المحبوبين بوعي طبقي . لكن ذلك نادر . صحيح ان طفلا ثوريا ، ترعرع على الالحاد، يمكن ان يحرض مدرسة بكاملها وان يقلب سافلها عاليها ، لكن ستبقى مثل هذه الامكانية عارضة اذا لم يجرِ تنظيمها . ان الكتابات برسم الاطفال التي وزعها في المانيا اطفال كذلك ، لم تخلف أثرا يذكر ، لانهـا كانت تهدف الى ان تغرس في عقولهم شعارات عقيمة غير مشوقة، بدلا من ان تثير اهتمام الطفل بالمشكلات والقضايا الحقيقية للحركة البروليتارية . وينبغي هنا ان أؤكد ، بالرغم من جميع ضروب الاعتراضات آلتي لا تقوم على اساس متين ولا تستنـــــد الى اي تجربة ، والتي تصدر عن محركي جماعات الاطفال ومدراء منظمات الطفولة ، ينبغي ان أؤكد ان ردود فعل الاطفال تجاه المسائـــل السياسية تكون في منتهى السهولة والحيوية والحدة اذا جعلنا الطريق الى هذه المسائل القضايا الجنسية واذا اتخذنا منهم موقفا رفاقيا بنوع ما . والخيار على كل حال معدوم نظرا الى ان احساس الطفل بالقمع الجنسي مباشر ، في حين ان عقله شبه عاجز من الوهلة الاولى عن استيعاب المسائل الطبقية . واذا احيط الطفل بإعلام جنسي مبكر وصادق ، فلن تكون نتيجة ذلك تعلق الطفل بمن يوفر له مثل ذلك الاعلام فحسب ، ولن تكون نتيجته تبديد ريبته تجاه الراشد فحسب ـ وهي ريبة حاضرة دوما وان في ظروف مختلفة ـ بل ايضا توفير أمتن ركيزة ممكنة لنمط التفكير الملحد ، وبالتالي للشعور الطبقي . ولا يعود سبب الصعوبة هنا الى الاطفال بقدر ما يعود الى الراشدين الذين يفترض فيهم ان يؤدوا هذه المهمة . ويسهل ، انطلاقا من هذه الركيزة، ايصال الطفل الى مشاعر وأحاسيس ومدركات معادية للكنيســـــة وللرأسمال . وبالمقابل ، فان ذلك متعذر او بالغ الصعوبة بدون تلك الركيزة . لكن انجاز هذا الجانب الايجابي من المهمة يستوجب معرفة عميقة بضروب الكف والكبت الخطيرة التي يعاني منها الطفل والتي تقوده

فيما بعد الى ارتباطات وتعلقات رجعية . لنلج الى منزل قروي ، في الجبل ، لدى الاهل فيه قناعات اشتراكية . فالطفل لا يني يسمع باستمرار اذا ما قرع الباب غريب : «قل صباح الخير بلطف» او «ماذا يجب ان تقول ؟» ، وعندئذ ينكفىء الطفل على نفسه هصرا وقلقا ، ويصبح «حسن التهذيب» . وان واحدة من اهم مهام الجبهة البروليتارية لهي النضال الايديولوجي ضد «حسن التهذيب» هذا . بيد ان ما يجعل هذه المهمة بالغة الصعوبة هو التكوين الايديولوجي للمربي البروليتاري نفسه . فالحكايا وقصص الاشباح والتهديدات («سأستدعي للحال رجل الشرطة») التي يلجأ اليها المربي عادة تؤلف جزءا من اقوى المؤثرات الرجعية الموضوعية تحت متناول الرجعية السياسية . فكل اب بروليتاري، باستثناء القلة القليلة ، يثأر لنفسه عن طريق طفله في البيت من عبوديته في المنشأة او المصنع . فهو في بيته على الاقل السيد ، وفي وسعه ان يصدر الاوامر وان يجد من يأمره . واذا لم يكن الكلب ، فليكن الطفل . ولا حاجة هناك لاقامة الدليل على ان ضرب الطفل مظهر من مظاهر هذه الذهنية . لكن معرفة ذلك لا تجدي فتيلا اذا صاحبها الاستنكاف وعدم الاكتراث . والمطلوب في هذا المجال تنظيم دعاية مضادة واسعة جدا ، على الصعيد العالمي . وهذا امر ممكن تماما في ظل الراسمالية . فكل أم تضرب طفلها في الطريق يجب تقريعها علنا . وسوف يقود تنظيم اجراء من هذا القبيل الرأي العام بسرعة الى المشاركة في النضال في سبيل اعادة دمج الطفل بالمجتمع بديلا عن وضعه كعبد للاسرة . وسوف نصادف عندئذ اناسا يزعمون ان الطفل «ملكهم» وانه من المباح لهم ان يضربوه ، واناسا يذهبون عكس هذا المذهب وهم في معظمهم افراد لم يسمعوا قط بالشيوعية . ومن السهل ان ينخرط هؤلاء الناس للحال في صراع الطبقات ، اي ان يشاركوا في واحد من قطاعاته ، على نحو افضل وانفع واجدى بألف مرة من تلقيهم

منشورات «مطلبية» تدس تحت الابواب وتذهب الى سلة المهملات. ومن المؤكد أننا لا نستطيع هنا ان نشرح كل شيء بالتفصيل وان نعطي تعليمات محددة دقيقة . ولا يفترض باشتراكيي البلدان الراسمالية ان ينتظروا اصلا تعليمات ، وانما عليهم ان يحددوا مواقفهم استنادا الى قناعتهم الداخلية بما يبدو لهم عادلا ونافعا، وضد ما يبدو لهم مجحفا وضارا . وبدلا من ان نردد ونكرر بأن يد المبادهة يجب ان تكون مطلقة للمنظمات القاعدية ، ينبغي بالاحرى ان نحدد ميادين الحياة الاجتماعية التي يمكن فيها للمبادهة ان تنمو وتتطور . ومن الضروري ، بغية تحقيق ذلك ، ان نبدل جميع اساليبنا في الدعاية، وأن نستبدل الدعاية الورقية بدعاية حية ، والخوف من ارتكاب الاخطاء ـ وهو خوف يشل النشاط ـ بشجاعة ارتكاب الاخطاء ومن ثم تصحيحها . ولنرجع الان الى الطفل . لقد اظهرت الابحاث التي أجريت في مضمار الاقتصاد الجنسي ان التعلم المبكر والمتزمت للنظافة يسبب عوارض خطيرة من الكف والكبت للطبع والمزاج . وقد لا يكون العمل في الجبهة الثقافية وتخطيط سياسة للطفولة سوى المعالجة المسهبة والعينية والموضوعية لمسألة التبكير في تعلم النظافة على سبيل المثال . وهذا طريق للوصول الى السياسة أقصر بكثير مما يمكن تأمله ، لان الرجعي ، الذي يحامي عن حسن التربية والتهذيب والانضباط ، لن يتأخر في الافصاح عن معارضته . لكن هذا بالتحديد ما نريده : ان نفتح باب مناقشات يشارك فيها السكان وتستأثر باهتمامهم ، لانها مناقشات تتناول المشكلات الشائكة للحياة اليومية . وانها لمهمة المحلل الاشتراكي ان يبذل المساعدة للمنظمات في هذا المجال، وأن يوجه المناقشات ويسدد خطاها ، الـخ .

هاكم مثالا عينيا آخر : ان تحظير الاستمناء لدى الاولاد وما يستتبعه من تهديد من جانب الاهل والمعلمين والخوارنة هو

موضوع مناقشات حادة منذ زمن طويل في اوساط الراي العام. وقد عجز الشيوعيون عن المساهمة بشيء في هذا المضمار ، اولا لانهم مشربون هم انفسهم بالآراء المسبقة البورجوازية، وثانيا لانهم يرفضون ما يطلقون عليه اسم «الفرويدية» ، وهذا شيء خارج عن الموضوع اصلا لان فرويد نفسه لم يكن له موقف محدد تجاه هذه المسألة . ومع ذلك فان هذه المسألة بعينها ، اكثر من اي مسألة اخرى ، هي التي تمثل المشكلة المركزية في تربية موجهة إما نحو الطاعة والانقياد وإما نحو الحيوية الصحية لدى الطفل . وهذه في الواقع مشكلات طبقية ، لا شؤون «فردية» . والكنيسة تعلم ذلك حق العلم ما دامت تضرب نطاقا من التحريم حول بعض المواضيع . فاستمناء الاولاد في نظرها ضرب من السياسة ! ونحن لا يخالجنا الظن هنيهة واحدة بأننا واجدون حلا لهذه المسائل فورا، لكن في مقدورنا ان نوضحها ، وان نعرضها في مختلف جوانبها، وان نثير المناقشات ، وأن نبث الحركة والحياة في عملنا . اما اولئك الذين قد يعترضون هنا بانه لا ينبغي التطرق الى المسائل الخطرة حتى لا تستغل في اثارة السخط والنفور وتأليب الناس علينا ، فاننا نرد عليهم بقولنا انه يكفي ان تعهد القضية الى أولئك الذين يملكون المؤهلات الضرورية لمعالجتها . وحسبهم ان يمتنعوا عن مضايقة هؤلاء الاخيرين والا يؤلفوا والكنيسة جوقة واحدة . ان الذين يعرفون صراعات الطفل مؤهلون اكثر من اي انسان آخر ليعرفوا مدى وعورة هذه المسائل ودقتها وخطورتها ، لكن في الوقت نفسه مدى أهميتها وإلحاحها . فهي الشغل الشاغل لكل أم ، ايا يكن المعسكر الذي تنتمي اليه ، ولكل طفل بلا استثناء . ونستطيع ان نقول الشيء عينه عن جميع المسائل المرتبطة بسياسة الطفولة ، هذه السياسة التي ليست ولا يمكن ان تكون بالنسبة الينا سوى علم التربية التطبيقي ، وان اقتصر حتى الان على المناقشة السياسية والنضال الايديولوجي . وانني لانوه بأنني

واع تماما بالمقاومة التي سيثيرها التطرق الى هذه المسائل ، لكن من المؤكد بالقدر نفسه اننا سنعالج بذلك مشكلات حياتنا الاساسية وسنتجنب بالتالي السقوط في الشيخوخة السياسية .

نحن لم نذكر هنا سوى بعض الامثلة النموذجية . واذا ما رد الان «اختصاصي» من الاختصاصيين بأن مسائل تربية الاولاد ما تزال موضوع مناقشات ومناظرات علمية ، فسيكون جوابنا عليه : صحيح انها متنازع عليها ، لكن لا سبيل الى تسوية المسألة وحلها ضمن جدران المكتبة ، وانما فقط في معترك النضال الحي في سبيل القضية نفسها .

انني اجهل ما اذا كان المثال التالي يمكن ان تترتب عليه نتائج عملية مباشرة وفورية ، لكنه يحفز بالتأكيد على ايلاء المزيد من الاهتمام للاشياء التافهة ، وحتى الشديدة التفاهة ، وعلى البحث عما هو هام في ما هو عادي وعلى معالجته ، وعلى تعلم كيفية تمييز الوقائع النمطية من الوقائع الفردية اللانمطية . ان هتلر يجند اليوم حتى الاولاد ، بفضل الالعاب والقصص الحربية بوجه خاص. لا مجال للشك اذن في انه من واجبنا ان نفهم لماذا تكفل له هذه الوسيلة النجاح ، وماذا يستجيب لها لدى الطفل . وليس المطلوب مجرد القيام بأبحاث في العمق ، بل المطلوب قبل كل شيء فهم ردود فعل الطفل . ففي احدى الباحات كان الاطفال الذين تتراوح اعمارهم بين السادسة والعاشرة يلعبون لعبة الجنود ، لعبة الحرب» وما الى ذلك من الالعاب المماثلة . رأيت غلاما يركض هنا وهناك ، على جنبه سيف ، وفي يده بندقية خشبية ، ويسدد باتجاه رفاقه . سألته اذا كان يريد ان يقتل رفاقه . فجمد في مكانه للحال ، وبدت عليه علائم الدهشة ، وسأل : «ان اقتل ؟»، فاجبت : «بالطبع ، حين تسدد عليه ، تقتله» . فاجاب : «لكني لا أرغب البتة في ان اقتل» . فقلت : «لماذا تركض اذن ومعك بندقية وسيف ؟» ، فأجاب : «السيف جميل وطويل» .

لست أريد هنا ان ادخل في مناقشة المشكلة المعقدة المتعلقة بالروح المسالمة وبالتمييز بين الحرب والحرب الاهلية ، لكن ثمة تجارب اخرى قد علمتني ان الاطفال ، بالرغم من بعض نيات القتل اللاشعورية ، لا يستمدون اللذة التي يجدونها في الالعاب الحربية من شهوة القتل ، وانما من القوة المحركة التي تعبر عن نفسها في اللعب ، ومن تعاظم الاحساس بالذات عن طريق السلاح الذي في اليد ، ومن الايقاع الخاص بالاشياء العسكرية . ألا ينبغي ان نأخذ مثل هذه الاعتبارات بالحسبان حين نرسم سياسة بروليتارية للطفولة ؟ أهذه طوباوية ؟ لست ادري . بيد ان الوقائع المشار اليها وقائع من الحياة الطفولية ، واذا كنا لم نمسك بزمام الاطفال فهذا بلا جدال لاننا لم نبذل جهدا لرؤيتهم في تعقيدهم ولتوجيههم والاستفادة مما يمكن توجيهه والاستفادة منه . ان هذه كلها مسائل صعبة ، بل بالغة الصعوبة ، تتطلب جوابا فوريا . واذا لم نعالجها ، فلن نجد لها البتة جوابا عمليا .

-٣-

السياسة البورجوازية والسياسة البروليتارية

ينبغي على حركة **السياسة الجنسية** ان تناضل على عـــدة جبهات ؛ واحدى هذه الجبهات هي تشابك الافكار المبهمة التي تبدو وكأنها مجردة من المعنى ما ان يطرح المرء على نفسه ابسط الاسئلة بصددها. واحد هذه الاسئلة هو التالي: «ما السياسة ؟». وهو يخطر للذهن حين يعترض معترض عند تعداد مبادىء علم النفس الجمعي المستنبطة من الاقتصاد الجنسي متذرعا بحجة لا تتبدل ولا تتغير : «قد يكون هذا كله صحيحا بل مفيدا ، لكن المهم قبل اي شيء آخر **السياسة والعوامل الاقتصادية**» . وفـــي وسعنا في هذه الحال ان نلاحظ كيـــف ان المستمعين الوديعين الموجودين في الاجتماع او في قاعة المحاضرة ، ممن كانوا يتابعون اطروحات علم النفس الجمعي باهتمام كبير ويعربون بين الفينة

والفينة عن موافقتهم ، اقول : في وسعنا ان نلاحظ كيف انهم يدعون الشكوك تنتابهم ، فتتلاشى ثقتهم بالاحكام التي كانوا قد كونوها بينهم وبين انفسهم ويرخون العنان لانفسهم في وقوف موقف احترام وتبجيل خائف وجل تجاه كلمة «السياسة» ، وهو بالحق موقف يبعث على الاستغراب الشديد . وكثيرا ما يحدث في هذه الحال ان يضطر الناطق بلسان وجهة نظر علم النفس الجمعي الى التراجع والتقهقر قليلا امام كلمة «السياسة» ، بالرغم من بساطة وجهة النظر تلك وبداهتها ، فيسلم بأنه كان من الواجب ان «تدرس اولا» علاقات السياسة بعلم النفس الجمعي . لكن الناطقين بلسان السياسة العظمى و«العوامل الاقتصادية»، الميالين على الدوام الى الافتراض بأن هذه العوامل مهملة وغير مأخوذة بعين الاعتبار ، مع ان الصحف والمجلات لا تتحدث في الواقع عن شيء آخر ، ناهيك عن انها لا تتحدث ابدا عن العوامل المتعلقة بعلم النفس الجمعي ، يجدون انفسهم بدورهم عادة عاجزين عن تقديم جواب عيني حين يسألهم احدهم ما المقصود بدقة بـ «السياسة»، وهي الكلمة التي لها تأثير يكاد يكون وثنيا على عامة البشر . والحال انه ينبغي ان نعتاد على اخضاع كل موضوع غدا وثنا وصنما لنور باهر ، نور الاسئلة الساذجة التي هي ، كما نعلم ، اصعب الاسئلة وانجعها واعمقها .

صنمية «السياسة»

يعتقد الفرد اللامتسيس ان «السياسة» هي قبل كل شيء محادثات بين ممثلي الدول الكبيرة والصغيرة يتم في اثنائها تقرير مصير البشرية . وهو يقول عن حق انه لا يفقه فيها شيئا .
وقد يرى فيها ذلك النشاط الهادف الى عقد تحالفات برلمانية

بين الاصدقاء والخصوم ، وكذلك الانهماك في الخـــداع والغش والتجسس والاستئثار بالامتيازات المادية واتخـــاذ القرارات بالاشكال «القانونية» . وهو لا يفقه فيها شيئا هذه المرة ايضا ، وكثيرا ما تثير اشمئزازه ونفوره ويجد لنفسه مخرجا بقوله «انه لا يريد ان يكون له دخل بالسياسة» . والحقيقة انه لا يتبين ان في الامر تناقضا ، لان مصيره انما يتقرر في تلك التجارة اللامشروعة على وجه التحديد ، ومع ذلك يدع اولئك الذين يعدهم نصابين يقررون مصيره بالنيابة عنه .

ويمكن ان تعني السياسة اخيرا رغبة المرء في اكتساب تأييد جمهرة السكان لقضيته .

وغني عن البيان ان السياسة البورجوازية لا يمكن الا ان تكون ديماغوجية بالنسبة الى من تربى تربية ماركسية ، وذلك لان كل ما تستطيعه هو ان تقطع الوعود للجماهير ، من دون ان تفي بها ابدا . والامر على عكس ذلك تماما بالنسبة الى السياسة الثورية، لانها تستطيع ان تقدم للجماهير ما تعدها به ، وبصورة غـــير ديماغوجية من حيث المبدأ . اما حين تكون ديماغوجية فلا يداخلنا ريب في ضرورة الاستنتاج بأنها قد تخلت عن المبادىء الثورية .

سوف نضرب مثالا على ذلك النمط من التفسير السياسي الذي ترى فيه جمهرة الشعب انه هو هو «السياسة العظمى» ، هذه السياسة التي لا يفهمها الشعب ، وينظـــر اليها باحترام ووجل ، ولا يعيرها اهتمامه الا بصورة سلبية ، هذا ان لم يقف منها موقف اللامكترث .

«... اذا كان المرء يفضل ، شان انكلترا ، اضفاء صفـــة شرعية على التسلح بدلا عن سباق التسلح ، فلا بد من ان يسلم في هذه الحال بأن هذا التشريع يجب ان يترافق بتوكيدات ضد انتهاكات جديدة للمعاهدات . وعلى اساس هذه التوكيدات يجب ان يتولى مؤتمر جنيف لنزع السلاح البحث في ضمانات لتنفيذ

اي اتفاقية لنزع السلاح . بيد ان المانيا لا تقبل بالشرط الذي وضعته فرنسا . وهي تلتزم الصمت حول هذه النقطة في اتصالاتها الرسمية ، وقد رفضت ، في محادثاتها مع لورد الاختام البريطاني الخاص ايدن في برلين ، الحضور الى جنيف . وهكذا أضحت المفاوضات الفرنسية ـ البريطانية ، كما يقال ، غير ذات موضوع . وقد انتهى التبادل الدبلوماسي لوجهات النظر خارج نطاق مؤتمر نزع السلاح من دون ان يتمخض عن نتيجة . ولقد بات مؤتمر نزع السلاح هو الملزم من الان فصاعدا بأن يقدم ، بدون المانيا ، ضمانات السلام الواجبة . وتعتمد فرنسا من هذه الزاوية على التعاون مع بريطانيا العظمى .

«هذا هو معنى ومضمون المذكرة الفرنسية الطويلة المؤرخة في ١٧ نيسان ردا على المذكرة البريطانية المؤرخة في ٢٨ آذار وعلى حاشية السير جون سيمونز المؤرخة في ١٠ نيسان» .

لقد ضربت هذا المثال من دون ان أشير الى المصدر ، وهذا عن عمد حتى لا اجرح احدا . والمقصودون هنا يتعرفون انفسهم بأنفسهم . والحق انه ليس بين ايدينا وسيلة اخرى لتحاشي قابلية الساسة الشديدة للتأثر والانجراح .

من هي «المانيا» ومن هي «فرنسا» ؟ وماذا يعني «التبادل الدبلوماسي لوجهات النظر» ؟ اهذا هو حقا معنى المذكرة الفرنسية ومضمونها ؟ ما علاقة هذه «المذكرة السياسية» بحاجات الجماهير وأفكارها ومشاعرها وحياتها وبقائها ؟ ليس من علاقة البتة . ولنقارن ذلك بسياسة لينين عند توقيع معاهدة بريست ـ ليتوفسك . فقد كان كل فلاح يتضور جوعا يفهم شعار «لتسقط الحرب» ، بينما كان دعاة السياسة العليا يعارضونه .

ان الجماهير الواسعة ، التي يفترض بالسياسة الثورية ان تنبثق منها اذا كانت تريد ان تضمن مستقبل هذه الجماهير ، تفكر

وتتكلم بطريقة مغايرة . وكل من يتكلم اليوم عن أسفار بارتو (١) من دون ان يفسر على نحو واضح وبسيط ومفهوم اين يكمن وجه الخداع والمخاتلة في هذه الاسفار، يكون هو نفسه قد مد يد العون للمخادعين والمخاتلين وان عن غير قصد منه .

لو أمعنا النظر في كيفية احساس الجماهير الواسعة بالسياسة العظمى ، للاحظنا ان الجماهير تقلد في احسن الاحوال هذه السياسة وتحاكيها في شكل سياسة الخمارات . فهي تنفعل بها سلبا ، وبخضوع وإذعان ولامبالاة ، وتمثل على الدوام دور الممثلين الصامتين الذين لا دور لهم يؤدونه في مسرحية «السياسة العظمى» . لكن علينا ان نفهم ان المهزلة المسماة بـ «السياسة العليا» ستنتهي نهاية فظة، وبصورة غير سارة بالنسبة الى الدبلوماسيين، اذا ما عزفت الجماهير عن اداء الادوار الصامتة لتتخذ موقفا فعالا، وبكلمة واحدة ، اذا تحررت من لاتسيسها . اما ذاك الذي لا يضع نصب عينيه على الدوام السؤال الاساسي التالي من مسائل السياسة الثورية : «ماذا يحدث في الجماهير ؟» ، ولا يجيب عليه باستمرار ، فمقضي عليه بأن يضيع في متاهة السياسة البورجوازية ، ولا يستطيع الا ان يختار بين مذهب اللاتسييس او التعاون مع تلك السياسة . ولا تسيسية الجماهير الواسعة هي واحدة من قوى الرجعية . ومن قواها الاخرى كذلك الهالة التي تحيط بها سياستها ، بحيث تأخذ الاشتراكيين انفسهم الرغبة في المشاركة فيها .

ان واحدة من اهم مهام السياسة الثورية ان نرى بوضوح ، وان نتحقق ، وان نفهم كيف تحس الجماهير بسياسة الكواليس.

---

١ ـ وزير الخارجية الفرنسية . وقد سافر في عام ١٩٢٤ الى براغ ووارسو وبلغراد ليناقش فيها مشروع «حلف شرقي» . ـ م ـ

فحين أعرب هتلر للمرة الاولى في صيف ١٩٣٢ لهندنبرغ (١) عن تطلعه الى رئاسة مستشارية الرايخ ، فلم يلاق لديه سوى الرفض، بعد ان لعبت وراء الكواليس واحدة من تلك المكائد المقرر لها ان تبقى ابدا خفية عن الجماهير ، توجه بالخطاب الى انصاره متذرعا ببالغ الحماسة بـ «مشيئة الشعب» . وقضية بوتمبا هي التي اتاحت له الفرصة .

كان قد صدر حكم بالاعدام على اعضاء من «ف. هـ» كانوا قد اغتالوا بوحشية احد العمال البولونيين . وانبرى هتلر يدافع عنهم علنا . وكانت خلفية بادرة هتلر هذه الرفض الذي قابله به هندنبرغ بعد مطالبته له بمستشارية الرايخ . واطلق هتلر العنان لقاعدته الجماهيرية ، بعد ان اخفقت صلاته الاقطاعية .

ولم يداخل الجماهير قط الشك في اللعبة التي كانت تشارك فيها . بل احست ، على العكس ، ان هتلر «يفهمها» من خلال تطلعاتها القوموية . ولقد كان للدعم الذي محضه هتلر لرجال صرعوا «كلبا ماركسيا» بدافع «الشرف القومي» ، ولمعارضته الحكومة البغيضة التي حكمت بالموت على القتلة ، مفعول فاق بما لا يقاس مفعول الدعاية الشيوعية المعاكسة ، الخاطئة ، التي كانت تكتفي بتسمية الجريمة جريمة ، معتقدة بأن ذلك هو جوهر «سياسة تبديد الاضاليل» التي كانت تنادي بها وتطريها وتعظمها. ولو كان الشيوعيون قاموا بالتحريض عن طريق اماطة اللثام عن الصلة بين رفض هندنبرغ وإثارة هتلر لمشاعر الجماهير ، لكان لذلك بعض المفعول والتأثير . لكن الحزب الشيوعي الالماني كان يقول على الدوام بـ «تعادل» جميع الميول والاتجاهات الرجعية ،

---

١ ـ ماريشال الماني صار رئيسا للرايخ عام ١٩٢٥ وجعل من هتلر مستشارا في عام ١٩٣٣ . ـم ـ

حارما نفسه بالتالي من فهم تناقضات البورجوازية ، ناهيك من انه لم يتعلم كيف يميز ردود فعل الجماهير التي تسير معه عن ردود فعل الجماهير التي تسير مع خصمه . وباكتفائه بتسمية الجريمة، وضع نفسه بصورة آلية ، في نظر الجماهير المؤيـــدة للنازيين والجماهير التي تخصه ببعض التعاطف ، في جانب الحكومة التي كانت هذه الجماهير تبغضها .

لماذا لم يتوجه ليتفينوف الى الجماهير ؟

اما ان تعبر السياسة الثورية ، بمضمونها ولغتها ، عـــن الوجود البسيط ، الخشن ، القريب من الحياة ، للجماهـــير الواسعة ، واما ان تكتفي بتسمية نفسها ثورية وبقائها في الواقع رجعية وغير فعالة . وحتى لو قالت اشياء صحيحة ، للبثت غير مفهومة من قبل الجماهير ، ولسلكت مسلكا مضادا للثورة مـــن وجهة النظر الموضوعية .

ان العالم على عتبة حرب جديدة ضروس فتاكة . وقد ذهب بارتو وليتفينوف (١) الى جنيف كممثلي دول وكمدافعين عن السلم ضد المانيا . والنقد الوحيد الصحيح الذي وُجه حتى الان الى موقف ليتفينوف ، من وجهة نظر الثورة العالمية ، انما وجهتـه المجلة الناطقة باسم تروتسكي ، «كلمتنا» ، في الاسبوع الثاني من حزيران ١٩٣٤ . وبالمقابل ، تبدو جميع منظمات البروليتاريـــا الاخرى وكأنها لم تفهم بتاتا ما حدث في جنيف . ومع ذلك ، لم يتوصل هذا النقد نفسه الى صياغة المشكلة الاساسية من وجهة

---

١ ـ مفوض الشعب للشؤون الخارجية في الاتحاد السوفياتي يومئذ. ـم

النظر البسيكولوجية : «كيف هو احساس العامل والمستخدم والفلاح غير المسيسين في المانيا وفرنسا وانكلترا ، وحتى في الاتحاد السوفياتي ، بقدوم رجلي الدولة هذين ؟ هل خالجهم الشعور بأن ليتفينوف يمثل دولة بروليتارية ؟ هل رأوا من فارق بين رغبة بارتو في السلام وبين رغبة ليتفينوف ؟ هل استوعبوا التمييز الأريب الذي نقيمه الحكومة السوفياتية بين «الامبريالية في مجموعها» وبين «بعض احزاب الحرب» ؟ هل يعلم العامل الروسي انه سيتوجب عليه ، على اساس التحالفات الراهنة ، ان يقاتل الى جانب العامل الفرنسي ضد العامل الالماني والانكليزي ؟

كيف يمكن لانسان من عامة الناس أن يفهم هذا التعليق الصادر عن بيلا كون (١) :

«اننا نناضل في غالب الاحيان ضد الحرب **بوجه عام** . وليس من النادر ان يجد العديد من الصحفيين الشيوعيين انفسهم في موضع ضيق وتحرج . فهم يسألون : «كيف نفسر ان هريو(٢) يذهب ، في الوقت الذي تعد فيه الامبريالية العدة للحرب ، الى الاتحاد السوفياتي ويلقى فيه استقبالا حسنا ؟ لقد قرات مقالات في غاية الرداءة عن رحلة هريو هذه . ولم استطع ان اقرا في اي مكان ما غدا الان واضحا تماما بعد خطاب الرفيق ستالين في الدورة السابعة عشرة للحزب ، أعني وجود احزاب مناصرة للحرب وراء الامبريالية . ان الامبريالية في مجملها ، وبوصفها مرحلة ، تؤيد الحرب ، لكن هناك احزابا حربية متنوعة تغالي في التحريض على الحرب . والمهمة الراهنة هي ان نجعل هدفنا ومرمانا هذه

---

١ ـ وجه شيوعي مجري بارز نجح في الاستيلاء على السلطة في المجر لفترة قصيرة عام ١٩١٩ . ثم عاش في المنفى . ـم ـ

٢ ـ كان يومئذ نائبا لرئيس الوزارة الفرنسية . ـم ـ

الفئة من البورجوازية التي تؤلف على وجه التحديد حزب الحرب وتغالي في التحريض على الحرب .

«ولا بد من الاشارة بالطبع الى ان هذه الشرائح من البورجوازية التي تتنكر اليوم في إهاب مسالم او التي ترى ان اوان الحرب لم يئن بعد ، ستؤيد هي الاخرى الحرب حين تأزف الساعة ، الحرب ضد الاتحاد السوفياتي ، بالتواطؤ مع الحزب الحربي الحاكم . ينبغي ان نستمر في ترداد ذلك ، لكن يتوجب علينا ان نركز الهجمات على أحزاب الحرب : الطغمة العسكرية ـ الفاشية التي تتألف من الجنرالات والاقطاعيين واقطاب الصناعة في اليابان ، الفاشيين الهتلريين في المانيا ، « الصقور » في بريطانيا العظمى (١) ، الخ» .

(بيلا كون : «مهام الصحافة الشيوعية» راندشو ٣٣ـ١٩٣٤ ، ص ١٢٥٩) .

وأين نضع صناعة التسلح الفرنسية ؟

ان من لا يفقه شيئا في سياسة التحالفات سيسأل : لماذا لم يتوجه ليتفينوف ، في جنيف ، بالخطاب الى الجماهير الواسعة في الاقطار كافة ، هذه الجماهير التي لا تريد الحرب بأي ثمن ؟ لماذا لا يعقد تحالفات الا مع الحكومات الامبريالية ، وليس مع الجماهير ؟ لماذا يعلل نفسه بالوهم الذي تعلل به الامبرياليات

---

١ ـ اسم كان يطلق على رجال كتيبة المشاة السابعة والخمسين في انكلترا . ـم ـ

نفسها ، والذي يتخيل ان «عصبة الامم» ، التي قضت نحبها منذ زمن طويل ، تستطيع حقا وفعلا ان تحول دون الحرب ؟ لماذا لا يقول بلغة واضحة وصريحة ، مفهومة من الجميع ، ان «عصبة الامم» ليست هي التي تستطيع ، شانها في ذلك شأن اي حكومة بورجوازية ، ان تحول دون الحرب حقا وفعلا ، وانما الذي يستطيع ان يحول دونها العمل المتضامن للشغيلة العاملين في صناعة التسلح والمواصلات في جميع الاقطار الرأسمالية ؟ لا يستطيع اي انسان ان يزعم ان سياسة الاتحاد السوفياتي الخارجية اكثر قابلية للفهم من سياسة فرنسا بالنسبة الى الشغيل غير المسيس في مختلف الاقطار . والحال ان قابلية الفهم هي المعيار الاساسي لسياسة بروليتارية !

لندع جانبا المسألة المتعلقة بمعرفة السبب الذي جعل ممثل دولة بروليتارية يتناسى تناسيا تاما اللغة الدبلوماسية الثورية ، بانتظار ان نعرف ما لدى «قادة الثورة الاعلى» ليقولوه بصدد هذا الموضوع . بيد ان ثمة شيئا واحدا لا يكتنفه التباس : فقد كانت كلمة واحدة من ليتفينوف يوجهها ، متجاوزا نظام هذه المؤسسة واصولها ومزدريا كل تسوية دبلوماسية ممكنة ، الى شغيلة التسلح والمواصلات والى امهات الجنود في جميع البلدان ، كانت كلمة واحدة منه ستفعل فعلها باتجاه تحاشي الحرب اكثر من عشرين حلفا على الورق . هل يؤمن ليتفينوف حقا بأن سياسته قمينة بالحيلولة دون الحرب ؟ الا يشكل النداء الذي وجهه كارل ليبكنخت عام ١٩١٤ ، في شكل رفض للاعتمادات العسكرية ، حاجزا ضد الشوفينية امنع وانجع بالف مرة من الماحكات الاشتراكية ـ الديموقراطية ؟ لكن قادتنا الثوريين البروليتاريين يكنون قدرا هائلا من الاحترام للمندوب الدبلوماسي ، ولاسيما اذا كان سوفياتيا ، الى درجة لا يعودون يفهمون معها لغة الجماهير التي تتبعهم ويتهموننا بأننا مأفونون. لكننا مرة اخرى نقول: ان حساب

خمسة او عشرة ملايين من ضحايا الحرب المقبلة يفوق في القيمة خمسمئة الف من الحراب ، وحتى لو كانت سوفياتية ! والفاجعة التي تتهيأ الان ستجعل اولئك الذين ينعتون اليوم توكيدنا بالجنون واللامعقولية ، يدركون هذه الحقيقة ولو بثمن من الدم !

ليس امام الاتحاد السوفياتي بصفته دولة بروليتارية سوى حل واحد : تحالف جيشه مع الشغيلة العاملين في صناعة التسلح والمواصلات ، ومع الجنود البسطاء من جميع الاقطار، ضد الحكومات وهيئات الاركان من مختلف الاقطار . ولئن كان في سبيله اليوم الى عقد تحالفات مع دبلوماسيي الاقطار الراسمالية وهيئات اركانها ، فهذا لان الحركة الثورية قد منيت بالفشل على الصعيد الاممي . لقد توجه لينين على الدوام ، في كتاباته وخطاباته ، الى الجماهير الواسعة . وهذا يمكننا من البت في مسألتنا : هل ستتاح ذات يوم القدرة للسياسة الثورية على تدمير السياسة البورجوازية اذا كانت تتبنى تلك الطريقة في الكلام ، وذلك التكتيك ، وتلك الاستراتيجية ، وباختصار ، الاساليب **البورجوازية** ؟ انها لن تتوصل الى ذلك ابدا . ولن يكون في مقدورها الافلات من متاهة السياسة ومن اللهاث وراء الاحداث، وهي ستفعل ذلك على نحو أسوأ وأدهى مما يفعل الساسة البورجوازيون . ليس ثمة سوى امكانية واحدة : قطع الاواصر بالسياسة البورجوازية ، والاستنكاف عن تقليدها ، ومعارضتها بمبدأ السياسة الثورية الاساسي **وهو التوجه باستمرار الى الجماهير ، بلا كلل ولا ملل ، وعلى نحو بسيط وواضح .** اعني التعبير عن افكار الجماهير البيّنة والمضمرة، وتحطيم توقيرها للسياسة العليا ، والامتناع عن حمل التدجيل على محمل الجد ، والتنديد به بلا هوادة ، والكلام بلغة الجماهير ، وعدم محاولة تكييف الجماهير مع «السياسة العليا» ، بل تكييف السياسة مع الجماهير ، اي دقرطتها وتبسيطها وجعلها في متناول الجميع

وإدراكهم . أن عبارة لينين القائلة ان المفروض في المستقبل بكل طاهية ان تكون قادرة على تسيير دفة الدولة بفضل تبسيط السياسة والادارة ، تحتوي في الحقيقة على الفكرة المركزية في الديموقراطية الاجتماعية بصورة جنينية . و«السياسة العليا» ما كانت لتوجد لولا ان السياسة الثورية قد تبنت شكلها ولغتها وطريقتها في التفكير ، حتى وان كان المضمون ثوريا ، ولولا انها امتنعت عن التوجه الى الجماهير وعاملتها على العكس معاملتها لطفل مطلوب اقناعه ولا بد في النهاية ان يدرك ، وهو يدرك بالفعل اكثر فأكثر ، انه وقع ضحية الغش والاستهزاء (١) .

مخطط السياسة الثورية

اذا كنا نعتقد بأن طموح الثورة الاجتماعية الى حل مشكلات الاقتصاد والحضارة باتجاه ديموقراطية اجتماعية له ما يبرره وبأنه يستند فعلا الى اساس ، فان المشكلات والمبادىء السياسية التي تظل مطروحة هي التالية :

١ ـ ما المناورات التي قامت بها مختلف اتجاهات البورجوازية لكسب تأييد الجماهير او لتفرقتها وقسمها ؟

٢ ـ كيف يمكن لهذه الجماهير ان تتبع جماعات او احزابا سياسية لا يسعها ابدا ان تفي بوعودها ؟

٣ ـ ما حاجات الجماهير وما مختلف مشاربها ؟

٤ ـ ما الحاجات المشروعة بين هذه الحاجات ، ما الحاجات

---

١ ـ ان مسألة السياسة الخارجية السوفياتية وملافاتها بمشكلات علم النفس الجمعي تستدعي بحثا مطولا ومفردا . ـ و.ر ـ

التي يستطيع المجتمع ان يضمن اشباعها والتي هي ضرورة من وجهة نظر الحياة ؟

٥ ـ هل تسمح حالة الاقتصاد العالمي باشباع الحاجات عن طريق تصفية السيطرة الراسمالية واستبدال الفوضى الاقتصادية بالتخطيط ؟

٦ ـ هل تعلم الجماهير ما المؤسسات الاجتماعية التي تناوىء تلبية حاجاتها ، وما سبب وجود هذه المؤسسات ؟

٧ ـ كيف السبيل الى تصفيتها وبم ينبغي ان تُستبدل ؟

٨ ـ ما الشروط الاقتصادية والاجتماعية والبسيكولوجية الضرورية لتلبية حاجات الجماهير الواسعة ؟

يمكننا ان نستخلص ، من كل سؤال من هذه الاسئلة ، بلا استثناء ، الضرورة الحتمية للثورة الاجتماعية الشاملة لمختلف ميادين الحياة بلا استثناء . وبعبارة اخرى : لا يجوز لمجهود علم النفس الجمعي ان يكون تابعا للسياسة الاقتصادية ، بل ان السياسة الاقتصادية هي التي ينبغي ان تضع نفسها في خدمة علم نفس جمعي يفهم الجماهير ويرشد خطاها . فليست حاجات الانسان في خدمة السياسة الاقتصادية ، بل ان السياسة الاقتصادية هي على العكس في خدمة تلبية الحاجات .

السياسة البورجوازية للحزب الشيوعي الالماني

تظهر سياسة الحزب الشيوعي الالماني للعيان غياب مثل هذه السياسة الثورية ، التي هي الوحيدة الممكنة ، في المانيا . فحين كان قادة الحزب الشيوعي الالماني يفيضون طوال ساعات في «قصر الرياضة» في الحديث عن تصارع المصالح بين الدول الكبرى

وعن الخلفية الاقتصادية للحرب القادمة ، كانوا يقلدون ، من دون قصد منهم ومن دون معرفة ، الشكل البورجوازي للسياسة . ان ميل ساستنا الثوريين لشديد الى منافسة بونكور (١) . ولئن اكتفوا بالتقليد وسدوا دونهم الامكانيات والاحتمالات قاطبة ، فذلك لاسباب تتعلق ببنية القائد الثوري . وهم سيشعرون من جديد، ولا بد ، بأنهم يتعرضون هنا للاهانة والشتيمة، وسينعتون ذلك بـ «الثورة المضادة التروتسكية» . وليس ثمة من امل في اقناعهم بأنهم ينتهجون من حيث الشكل ، وبالتالي موضوعيا ، سياسة بورجوازية . وحتى نقطع الطريق سلفا على كل احتمال لاحتجاج جاد سنضرب مثالا عينيا واحدا ، لا عدة امثلة ، يظهر للعيان ان الحزب الشيوعي الالماني استغنى عن مبدأ السياسة الثورية بمبدأ السياسة البورجوازية .

في كانون الاول ١٩٣٢ ، نظم الحزب الاشتراكي الالماني تظاهرة في حديقة عامة . وانضمت المنظمات الشيوعية ، ولاسيما الصدامية منها ، الى المظاهرة ، وامتزجت بجمهرة المتظاهرين الاشتراكيين ـ الديموقراطيين ، وحققت عمليا الجبهة الواحدة من دون اهتمام نظري كبير بموضوع التناحرات الاميركية ـ اليابانية. تلك كانت لغة الجماهير وإرادتها .

كانت قيادة الحزب الشيوعي الالماني تريد ، او تزعم انها تريد الجبهة الواحدة «تحت قيادة شيوعية خالصة» ، وانحت باللائمة على الاعضاء الحزبيين : فقد كانت تعليمات الحزب تقضي بالبقاء على مقربة وبـ «تحية» المظاهرة الاشتراكية ـ الديموقراطية . وفي الحقبة نفسها كان تورغلر يفاوض سرا القيادة الاشتراكية ـ الديموقراطية على تكوين الجبهة الواحدة ، ولم يكن للجماهير

---

١ ـ بول بونكور : سياسي فرنسي . ـم ـ

اطلاع على ذلك ؛ اذ كانت التصريحات الرسمية تؤكد ان جبهة واحدة مع القيادة الاشتراكية ـ الديموقراطية هي جبهة «مناهضة للثورة» . وقد شاركت انا نفسي في اجتماع سري بين بعض القادة الشيوعيين والاشتراكيين ـ الديموقراطيين لبحث موضوع تشكيل جبهة واحدة . وكانت الاوامر تقضي بألا يطلع احد في الخلايا على ما يجري . **هذه هي السياسة البورجوازية**. وعكس ذلك بالتحديد هي السياسة الثورية : اصدار التعليمات الى الشيوعيين بدعم المظاهرة الاشتراكية ـ الديموقراطية ، والاعلان من مكبرات الصوت للجماهير عن ان ثمة مفاوضات جارية بصدد الجبهة الواحدة ، اي اتاحة امكانية التقدم لافكار الجماهير وتمكينها من التعبير عن رغباتها وأمانيها . لكن بدلا من ذلك كان الحزب يمارس «السياسة العليا» و«الاستراتيجية» و«التكتيك» من دون الجماهير ، وضد الجماهير ، ويقصي جانبا ويطرد من صفوفه جميع أولئك الذين كانوا يريدون ويطبقون السياسة الثورية .

ان الغاء الدبلوماسية السرية مبدأ قديم من مبادىء الثورة. وهو مبدأ بدهي لا مجال للمكابرة فيه نظرا الى انه لن يعود هناك ما يُخفى ما دامت الثورة الاجتماعية تحقيق الارادة الشعبية ، التي ترشد خطاها البروليتاريا الصناعية ، ضد مالكي وسائل الانتاج . اذن لن يعود هناك ما لا يجوز للجماهير ان تفهمه وتستوعبه . بل على العكس : فالضرورة تقضي بأن تعرف وتراقب كل شيء .

السياسة الثورية داخل الحزب

اذا درسنا تطور سياسة الاحزاب الشيوعية منذ وفاة لينين، لاحظنا ان مبدأ التوجه الدائم الى الجماهير يُنحى جانبا اكثر

فأكثر ، وان البيروقراطية تثبت أقدامها وتوطد دعائمها طرداً مع تقليد أشكال السياسة البورجوازية في داخل الحزب وخارجه على حد سواء . وبدلا من انتهاج الديموقراطية داخل الحزب ، اعلنت سياسة الكواليس والمكائد وتأليف العصابات عن ظهورها . وكان ذلك بمثابة لغم دائم لقوى الحزب الثوري الذي يجمع مع ذلك خيرة العناصر الثورية .

في تشرين الاول ١٩١٧ ، حين ادرك لينين ان ساعة انتفاضة الشعب قد ازفت وأن القيادة البلشفية تضع العراقيل في وجهها، لبث على وفائه لمبدأ السياسة الثورية : **فقد توجه الى جمهرة اعضاء الحزب** ، من دون ان يشكل عصابة ، ومن دون ان يحيك المكائد ، ومن دون ان يرغب في الانتصار عن طريق نشاط فئوي وتشيعي . ان ابعاد الجماهير عن المناقشات وعن الاجراءات الثورية ضرب من الثورة المضادة ، ايا تكن النيات الذاتية . وليس لدى السياسة الثورية ما تخفيه عن الجماهير ، وانما تهدف على العكس الى ان تكشف لها عن كل شيء . وليس في مستطاع السياسة البورجوازية ان تسمح لنفسها بكشف كل شيء ، وانما عليها ان تخفي كل شيء . ونستطيع على الدوام أن نتعرف الموقف السياسي الرجعي بدالّة سياسة الكواليس اينما اُتبعت .

انها لمزية عظيمة للسياسة الجنسية الثورية ان تكون مضطرة الى التحدث باستمرار بلغة الجماهير ، والا تلاقي مناقَضة من جانب البورجوازية ، نظرا الى انه لا يمكن ان تكون هناك سياسة جنسية بورجوازية **ايجابية** . ليس ثمة خطر تبرجز يتهدد اذن ممثل السياسة الجنسية الثورية . وليس في الامكان ان توجد دبلوماسية سرية في السياسة الجنسية . ان السياسة الجنسية اما ان تتوجه الى الجماهير واما ان تكف عن الوجود .

-٤-

تطوير الوعي الطبقي انطلاقاً من حياة الجماهير

القيادة والحزب والجماهير

بالرغم من ان الحقيقة الواقعة التاليـــة تشق على النفس ملاحظتها وضارة بكل تأكيد بالحركة الثورية ، فلا سبيل الــى المماراة في ان مختلف الجماعات الثورية ، التي تدعي لنفسهـا جميعا امتياز كونها الوريث «الوحيد والحقيقي» لـ «الماركسيـة واللينينية الصحيحتين» ، ليس لها من وجود وعديمة الفعاليـة ازاء المهام الضخمة المطلوب تحقيقها ، وهذا بصرف النظر عــن الفروق والاختلافات التي تفصل بين هذه الجماعـات . فهـذه الجماعة تريد اولا ان تبني الحزب الثوري ، وتلك الجماعة تريد أن تنضوي الجماهير تحت لوائها قبل المشاركة في تأسيس «الاممية»

الجديدة ، وجماعة ثالثة تزعم باستمرار انها هي «الطبقة العاملة» والقيادة الثورية الوحيدة بالرغم أنها بعيدة عن ذلك غاية البعد ، وجماعة رابعة تحدد اتجاهها المميز لها بدالة مسألة تفصيلية محددة ومحدودة ، ألخ. وقد سبق أن قلنا ان هذا التشتت ناجم عن طريقة ناقصة أو غير صحيحة في طرح المشكلات ، وان الشتائم المتبادلة لا تحقق أدنى تقدم للقضية. عبثا نبحث عمن يطرح ويحل، في المناقشات الثورية الراهنة ، مسألة معرفة سبب الاخفاق في تأسيس حزب ثوري جديد ، ومعرفة سبب عدم افلاح المنظمات الثورية السابقة في اكتساب تأييد الجماهير بالرغم من الجهاز الذي كان متوفرا لها ، وبوجه عام ، معرفة علة بقاء مشكلة العلاقات بين القيادة والحزب والجماهير مشكلة عويصة مستعصية بعد مضي ١٧ عاما على الثورة الروسية . أليس من المحتمل ، بعد كل حساب ، أن يكون هناك خطأ فادح غير ظاهر للعيان ؟ لكننا نجانب الصواب مع ذلك لو عزونا أصل الكارثة الى البيروقراطية التي زرعها ورعاها ستالين ، او الى تبرجز القيادة الاشتراكية - الديموقراطية ، أو كذلك الى تلقي هتلر مبالغ ضخمة من رجال الصناعة . فالمسألة الجوهرية تبقى مسالة معرفة علة ارتضاء العمال بالاصلاحية والبيروقراطية وقبولهم بهما . وبذلك نجد أنفسنا وقد عدنا الى المسألة الاساسية ، مسألة العلاقات بين القيادة والحزب والجماهير .

يزعم مؤسسو الاممية الرابعة ، اذا أخذنا بما يقوله مسؤولوهم وصحفهم ، أنه من الواجب ان تكون البداية انشاء الحزب الثوري، ومن ثم اكتساب البروليتاريا ، مع أن البورجوازية الصغيرة هي وحدها التي ستنضم . انني لا اشك في أن قياديي الاممية الرابعة يدينون هم انفسهم نقص هذا الطرح وعدم كفايته . فالمرء لا يستطيع ان يزعم نفسه ماركسيا وان يفصل في الوقت نفسه فصلا معمما وجذريا بين القيادة والحزب والجماهير . فالعلاقة بينها

ـ لنستخدم ولو لمرة واحدة كلمة كبيرة ـ علاقة جدلية . وزبدة القول : ان الحزب الثوري لا يمكن أن يولد في الفراغ ، لا يمكن أن تتكون قسماته ومعالمه الاولى الا انطلاقا من الجماهير ؛ وهذا يستوجب ان يتكلم مؤسسو الحزب لغة الجماهير ألتي يفترض به أن يتالف منها . لكن الجماهير لا تفهم الفروق والاختلافات الدقيقة بين مختلف الاتجاهات ولا تكترث لها . ولا يتكون الحزب الثوري على اساس انشاء واضح لتصور ولممارسة مطابقين للواقع فحسب ، بل ايضا ، **وفي المقام الاول** ، على اساس معالجة المسائل التي تهم مختلف فئات السكان . وانما بعد ذلك فقط تقدم الجماهير الواسعة للحزب الكوادر التي هو بحاجة اليها . وذلك يسمح بالمقابل بهيمنة افضل على الجماهير ، وهذا يؤثر من جديد باتجاه معاكس . ان الحزب والجماهير يتقدمان من خلال مساهمتهما المتبادلة . وانما من هذا الانصهار الصميم ، وفي الوقت نفسه من هذا الانتقاء للكوادر القيادية انطلاقا من الجماهير، يظهر الى حيز الوجود الحزب الجماهيري ، اي الحزب الذي يقود الجماهير محددا بالكيف لا بالكم . لقد كان الحزب الشيوعي الالماني ينظم حملات تنسيب للاعضاء ، فيقبلهم بلا انتقاء . كان «حزبا جماهيريا» بالمعنى الكمي ، لكنه ذاب واضمحل ، جزئيا بسبب المد والجزر في تعداد المنتسبين اليه ، وجزئيا بسبب النقص في التمايز بين الكوادر المتكونة من قبل وبين جمهرة الاعضاء . وسوف نعود الى هذه المسالة في مقال عن التنظيم .

لقد كانت الفكرة الهادية على الدوام للسياسة الجنسية الالمانية هي أن الزمرة الموجهة لنشاط جماهيري لا تستطيع ابدا أن تدرس وتمحص كل شيء بالتفصيل ، وان الجماهير لا تستطيع ابدا من جهة اخرى أن تفهم من تلقاء نفسها الوقائع الاساسية وان تصوغها وأن تحولها الى ممارسة محددة ، وانه لا غنى بالتالي عن تماس حي بين القيادة والجماهير ، وباختصار ، أن النظرية يجب أن

تستحدث انطلاقا من حياة الجماهير وان ترجع اليها في شكل ممارسة . وقد تعلمت «السياسة الجنسية» الالمانية من نشاط الحزب ان الاعضاء الحزبيين لا ينبغي ان يكونوا اجهزة لايصال قرارات القيادة ، وانما فقط وسطاء بين حياة الجماهير والقيادة. وحتى يتحقق مثل هذا الاتصال ، دعت «السياسة الجنسية» الى «امسيات تأهيل» . ولم يكن القصد من هذه الاجتماعات تثقيف الكوادر ، وانما التثقف منها (من لا يتذكر الاجتماعات المشهورة للحزب الشيوعي الالماني التي كان فيها مثل هذا التماس ممنوعا منعا مباشرا !) . ولم يكن هناك من موضوع محدد او مناقشة محددة ، لكن الكوادر والرفاق كانوا يسألون بكل بساطة عن كنه متاعبهم الحالية . وكان ذلك قمينا على الاقل بأن يوفر الاسباب لعدم الوقوع في الخطأ فيما يتعلق بما هو اهم من غيره آنيا . وكان يدور نقاش مشترك حول الصعوبة المواجهة ؛ فتارة كان يوجد حل يترك امر التحقق منه لمحك الممارسة ، وطورا كان يؤجل القرار الى يوم تتوفر معلومات أغنى . وبذلك كانت الحياة تعبر عن نفسها بحرية من خلال التبادل الودي لوجهات النظر . ولم تكن هناك حاجة لصدع الرؤوس بغية ابتكار نظريات ، اذ كانت هذه الاخيرة تظهر من تلقاء نفسها . وقد دلت المشاركة المتعاظمة وحيوية المناقشات على أن امسيات التأهيل عمل موفق . وكانت هذه الامسيات قمينة بأن تقنع المرء بأن الحياة لا تدع احدا يشوهها ، وانما تعبر عن نفسها بصورة واضحة وبسيطة . كان يكفي لذلك أن تدع حرية الكلام بقلب مفتوح لكل عضو في المنظمة (ناهيك عن المشاركين الآخرين الذين ليسوا اعضاء فيها) . وكانت الصعوبة الوحيدة التي لها أهميتها تتمثل في التشويه الفكري الناجم عن الافكار الخاطئة للايديولوجيا البورجوازية ؛ هذه الافكار التي كانت تتبخر مع ذلك على ضوء التمحيص الصادق والقريب من الحياة وغير الدوغمائي . لكن عدد أمسيات التأهيل لم يتجاوز الثلاث .

فقد امتنع ممثلو الحزب الرسميون عن توجيه الدعـوات الـى الاجتمـاع .

موقف «السياسة الجنسية» ازاء «الحزب الجديد»

من الممكن ان نصوغ على الوجه التالي اصعب المسائل واشدها الحاحا في اعادة تكوين الحركة العاملة : أحزب جديد أم تجديـد ثوري للاممية الثالثة ؟ ولا تستطيع «السياسـة الجنسيـة» في الوقت الراهن ان تختار ايا من هذين الطريقين ، وهذا لسـببين . فهي لا تعرف ، من جهة أولى ، ما الحلقات والفئات والمنظمات التي تستطيع أن تتبنى بأسرع ما يمكن وبأنجع ما يمكن وجهات نظرهـا بصدد مقتضيات سياسة جنسية ثورية . واستنـادا الى الموقف الذي وقفته حتى الان المنظمات السياسية الكبيرة ، لا نستطيع أن نأمل شيئا اكثر من المنظمات المحبذة لاممية جديدة . لكن ليست هذه هي النقطة الحاسمة : فما السياسة الجنسية الا عنصر ـ وان يكن ضروريا ، بل مركزيا ـ من مجمل عناصر الجبهة الثورية . اما الشيء الحاسم فهو معرفة من سيكوّن بنية الحركة العاملةالمجددة . ان هذه النقطة لم توضح قط حتى الآن . ولو كنا نعرف فعلا مـن اليوم أن الاعضاء الحاليين في الحزب الشيوعي الالماني، على سبيل المثال ، هم الذين سيشكلون تلك النواة (مع استبعاد القيادة الحالية بالبداهة) ، لكان من العبث واللامعقول تأسيس حزب ثوري جديد؛ اذ أن الاعضاء الثوريين في الحزب الشيوعي الالماني سيجـدون انفسهم ملزمين ، على اساس هذه الفرضية ، لا باقالة القيـادة القديمة العاجزة عن اي نقد ذاتي فحسب ، كما جرى في الماضـي أكثر من مرة ، بل ملزمين ايضا باقصائها بصورة رسمية واستنباط

قيادة جديدة رويدا رويدا من داخل صفوفهم بالذات . وعلى كل حال ، يستحيل الامتناع الى ما لا نهاية عن وضع قرارات «اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية» موضع تنفيذ ، وعلى سبيل المثال الامتناع عن الاعلان عن «صعود القوى الثورية» وعن الدعوة الى «الاضراب العام» ، بالرغم من أن «اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية» تطالب بذلك، والاستمرار في الوقت نفسه في المماهاة بين «الحزب الشيوعي» و «اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية» . ان موقفا سياسيا كهذا لمبهم وغامض. ومسألة معرفة ما «الحزب» ومن «الحزب» تستأهل اليوم أن تسلط عليها الاضواء وأن توضح اكثر من اي يوم سبق . هل الحزب مجموع الاعضاء ، ام جهاز الكوادر وحده ، ام «اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية» ؟ نحن نعلم أن خيرة العناصر في الاشتراكية ـ الديموقراطية تستخدم بدورها مفهوم «الحزب» وكانه صنم او وثن معبود . والحق أن وحدة الحزب وتلاحمه يمكن ان يكونا في لحظة بعينها قوة هامة ، وفي لحظة أخرى عقبة كبيرة امام الحركة الثورية ، وذلك تبعا لبنية الحزب وسياسته وعمله **الموضوعي** .

ان نخبة قوات الثورة ، اعني شغيلة الصناعة والمواصلات ، لا تنتمي «بعد» الى الحزب الشيوعي . ويبذل اعضاء الحزب قصارى جهودهم ، بمختلف الوسائل ، اليوم كما في الامس ، لاجتذابهم ، لكن الارادة والشجاعة الذاتيتين غير كافيتين وحدهما لذلك . فالوصول الى ذلك يستوجب أيضا معرفة أفضل الوسائل . لعل نخبة القوات تلك ستؤلف عما قريب نواة التنظيم الثوري من دون أن ترغب في الاندماج بالتنظيم الراهن للحزب الشيوعي؛ وبالفعل، لقد كانت فيه عام ١٩٢٣ ، ثم هجرت صفوفه ؛ ولا بد لنا من أن نفهم اسباب ذلك . وعلى كل حال ، انما في تلك اللحظة اكتسبت مسألة تنظيم ثوري جديد اهمية فائقة . وكذلك ستكون الحال اذا ظهرت الى حيز الوجود حركة جماهيرية خصبة وثابتة ومستمرة ،

لا مجرد التهاب عابر ، ليس لدى العمال الاشتراكيين ـ الديموقراطيين فحسب ، بل أيضا لدى بروليتاريي «ف. هـ» الذين يتسم اتجاههم بالثورية (١) .

١ ـ ملاحظة اثناء التصحيح : ان الزام «ف. هـ» في المانيا حدودها في ٣٠ حزيران ١٩٣٤ قد بيّن ان التناقضات (التي تكلمنا عنها في «علم نفس الفاشية الجمعي») بين المظهر الثوري والمظهر الرجعي للفاشية قد انفجرت على حين بغتة بعد ان كانت ايديولوجيا الفاشية توحد بين هذين المظهرين . انني لا اقول ذلك لالبعث ، كما يفعل القادة الثوريون عادة ، ان «التحليل» قد تأكدت صحته ، وانما للسبب الآتي : فحتى عهد قريب كانت صحافة الكومنترن تنهال بالشتائم على كل محاولة تريد ان ترى في «حزب عمال المانيا القومي الاشتراكي» شيئا اكثر من مجرد شرطة انضباط تابعة للرأسمال المالي ، اي على كل محاولة تريد ان ترى فيه طاقة الجماهير الثورية وقد تغلفت باهاب رجعي . اما اليوم فقد رأت بأم عينيها ثبات صحة فرضيتها عن صعود ثوري من خلال تصفية الجناح اليساري في «حزب عمال المانيا القومي الاشتراكي» . وينبغي ان نأمل ان لا يعرف تاريخ الحركة الثورية في المستقبل مثل هذا الارتباك ومثل هذه الخفة . ان من شارك في صراعات الحزب الداخلية بين ١٩٢٩ و١٩٣٣ يعلم ان نظرة استنكار واتهام كانت تمتد الى كل فرد يومىء الى الطابع الثوري المبهم لـ «ف. هـ» ، او يشير الى الحقيقة الواقعة التي لا مراء فيها وهي ان قسما كبيرا من «اتحاد مكافحي الجبهة الحمراء» (منظمة صدامية للحزب الشيوعي الالماني ـ «م») قد انضم الى «ف.هـ» ، او يؤكد ان اعضاء «ف.هـ» يتجندون من بين الشغيلة ، وان منظمة « ف. هـ » هي موضوعيا فحسب ، وليس ذاتيا ، منظمة من المرتزقة تعمل لصالح الرأسمال . لم يكن ذلك موضع تحبيذ ، ولم تكن العين ترى في الفاشية سوى وظيفتها الرجعية ، ولم تكن ترى الطاقة الثورية في قاعدتها الجماهيرية ، وبذلك كانت المعركة خاسرة سلفا . اما وقد حصل ما حصل ، ونظرا الى انه لم يعد من الصعب تمييز التناقضات ، فان هناك تسليما بما كان في السابق محظورا . وسوف يقول «المخلصون للحزب» ، تعزية منهم لانفسهم ، انذلك شيء جيد فيحد ذاته ، وانهلا يجوز تطلب اكثر مما ينبغي ، =

ان في وسعنا ان نفلح اليوم ؛ لان كل شيء في غليان وفوران،

= وان الكومنترن غيّر رايه في تقييم الفاشية كما غيره بصدد مسالة الجبهة الواحدة مع الاشتراكية ـ الديموقراطية . لكن الواجب يقضي بأن نرد على ذلك بقولنا: **ان القيادة التي لا تسبق الجماهير في تقييم الاحداث والتطورات ، والتي لا تتوقع ولا تستبق ، ليست قيادة ، وانما جهاز يعرقل التطور الاجتماعي** . وحين يدلل شيوعيون صالحون على مثل هذا الحلم ومثل تلك الدماثة تجاه القيادة ، فانما عن انصياع لاشعوري للسلطة. لقد علمتنا تجربة الحزب العملية انه حين لا يتقيد الكادر المتوسط بتعليمات الحزب ، فهذا لانه يرى ويفكر غريزيا على نحو أصح مما يفعل المسؤولون في القمة . **وما تزال تواجهنا ، اليوم ايضا ، تطورات ينبغي ان نتوقعها وان نطورها انطلاقا من التناقضات الراهنة ، اذا كنا نريد السيطرة على المستقبل، لا ان نواجهه من دون ان نكون مستعدين له** . اننا نركب على سبيل المثال المجازفة التالية ، وهي ان تضمحل الحركات الجماهيرية القوية التي تهز هنا وهناك أقطارا شتى (الولايات المتحدة الاميركية ، فرنسا) من دون ان يكون ثمة من يرشدها ويوجهها ، ومن دون ان يكون لها هدف واع ، ثم تتلاشى ليحل محلها خمول وسبات وخيبة مريرة . ان هذا الاحتمال قائم ، لكن من الممكن ايضا ان يتطور الصعود الجديد لتمرد الجماهير ولوعيها الى موقف ثوري عالمي . ونستطيع ان نقول بكل ثقة انه كان في مقدورنا اليوم ان نضرب ضربة كبيرة بعد أحداث ٣٠ حزيران ، نظرا الى الاختلال الاقتصادي الخطير في المانيا ، لو ان القيادة الشيوعية مهدت الطريق منذ عام ١٩٢٣ ، او على الاقل منذ عام ١٩٢٩ . لا جدوى البتة من التبرؤ ومن نفي التهمة عن النفس ، وانما ينبغي استخلاص دروس الماضي . ان الواجب يقضي علينا اليوم ، من خلال تفهم صحيح للخطوط العريضة لتقدم السيرورة الاجتماعية وتراجعها ، ان نعد العدة كاملة للامساك بمقاليد المجتمع فيما اذا دبت فيه الفوضى . وبانتظار ذلك ، يتوجب على الجمهرة الكبرى من سكان المعمورة ان تكتسب بصورة بطيئة لكن اكيدة الشعور الذي لا يتزعزع بأننا الوحيدون الذين يفهمونها (لا ان تكتفي بفهم بارتو وليتفينوف ورغائبنا =

ولان ما من شيء قد اخذ شكله النهائي . وما كانت مسألة حزب جديد لتنطرح على بساط البحث لو وجدت داخل الحزب الشيوعي امكانية لاثارة هذه المسائل ، ولتبادل وجهات النظر ، ولسبر احتمالات التطور . والحال أن شيئا من هذا لم يحدث . وانه لفي وسعنا ان نبدأ بدراسة سيرورة التراكم والنضوج الثوري الجارية الان في المانيا بين مختلف فئات السكان ، وان نستخلص في كل لحظة الموقف الواجب اتخاذه .

لو ان الكوادر الثورية لا يدافع اليوم كل منها عن تنظيمه الخاص في المقام الاول ، ولو دافعت على العكس عن **قضية الاجماع الثوري** ، لكانت الآن على درجة كافية من المرونة لتبادر الى التحرك السريع والمناسب حسب حركة الجماهير ، ولكان في مستطاعها ، بدلا من أن تدعو بصورة مجردة وميكانيكية الى الاضراب العام ، ان تساعد عضو «ف.هـ» وكادر حركة الشبيبة والتنظيم النسوي ، بتقديمها لهم تفسيرات وشروحا عينية بصدد التناقضات والحلول والحالات المستعجلة ، وان تضمن لنفسها بالتالي بصورة آلية ثقة هؤلاء جميعا ، وفي نهاية المطاف قيادتهم . ان الخواء والمدرسية والجمود وإعراض الجماهير تتأتى على وجه

= الخاصة). وهذه الثقة لا يمكن اكتسابها بالحيلة، بل ينبغي ان تضع الجماهير ثقتها الصادقة والحارة في الشيوعية ، هذه الثقة التي لم يحل «القادة الاعلون» دون تطورها طوال عشر سنوات فحسب ، بل قضوا عليها ايضا قضاء مبرما ومباشرا بأخطائهم وبقلة ذكائهم . والحرب القادمة هي الفرصة الكبيرة الوحيدة التي يمكن توقعها حاليا للثورة الاجتماعية. وينبغي الا نضيعها ، كما ضيعنا فرص ٢٠ تموز ١٩٢٢ ، وكانون الاول والثاني ١٩٢٣ - ١٩٢٤ ، و٢٠ حزيران ١٩٢٤ . ويتوجب على الثوريين ، للوصول الى هذا الهدف ، ان يدمروا في انفسهم اولا الايمان بالسلطة والسطوة !

التحديد من ان كل تنظيم قائم يعد نفسه وكان الآلهة نفسها قد اختارته واصطفته ليقود الثورة القادمة ، ويسعى على هذا الاساس الى ان يدين ويدمغ سائر التنظيمات الاخرى بمناهضة الثورة . وان نبالغ فلن نبالغ ابدا بالتنديد والتشهير بادعاء التفوق الساذج هذا وبطفولية هذا التنافس على الحظوة والنفوذ . ان على «السياسة الجنسية» ان تتحفظ من الافتراض بأن جهازها وتنظيمها يمثلان اليوم قيادة السياسة الجنسية الثورية . فالقيادة النهائية ليست مطلبا ، وليست حقا ، وانما فقط نتيجة سيرورة وتطور : فمن يفهم على نحو افضل من غيره ما يجري في العالم ، ومن يشجع أكثر من غيره الغليان والنضوج الثوريين ، هو هو من ستقع القيادة على كاهله . ان المرء لا يستطيع لا ان يستأهل ، ولا ان يستملك ، ولا ان يطالب ، ولا ان يحتكر قيادة الثورة . ومن يرفع اليوم صوته عاليا وجهارا ؛ في هذا الظرف العالمي الشديد الابهام والتعقيد والعصي على الفهم وغير المأمون العواقب ، ليتبجح بأنه هو القائد الاوحد ، الحقيقي ، الذي لا يمكن ان ينازعه منازع، للثورة التي ما تزال في رحم الغيب ، فيسقط هو نفسه في غياهب النسيان بأسرع من غيره اذا ما مضت الامور قدما الى الامام الى حد يسمح بالكلام بحق عن صعود ثوري .

ولا بد من شرط هام آخر حتى يكتب النجاح لاعادة بناء الحركة :

ان البروليتاريا المحبوة فعلا بوعي طبقي أقلية ضئيلة نسبة الى الامة قاطبة . وحتى لو صح ان القيادة تقع على عاتقها ، فان حاجتها الى حلفاء ستظل ماسة . ان الرفاق الالمان يرددون مرارا وتكرارا ان جميع أسباب التفاؤل متوفرة ، لان الثوريين الصالحين يلتقون من جديد ، ويتناقشون ، ويعملون معا ، ويتبادلون المشورة . هذا بكل تأكيد هام ، بل هام جدا ، لكنه لا يبيح مع ذلك التفاؤل . فالمسألة قبل كل شيء هي مسألة معرفة ما اذا كان

هؤلاء الثوريون الصالحون على تماس وصلة بالجماهير الواسعة غير المنظمة ، وما اذا كانوا يعيرون انتباههم ، بغية اقامة جسور هذا التماس وهذه الصلة ، لكلام هذه الجماهير الواسعة ، المسيسة وغير المسيسة على حد سواء ، ولافكارها ، ولتناقضاتها ، وما اذا كانوا يفهمونها ويسعهم أن يعطوها معنى ثوريا ويعيدوها الى الجماهير في شكل أوضح واصفى واقرب الى الوعي الطبقي . ان هذه الكوادر ستلبث هيئة اركان بلا جيش ، اذا كان المسؤولون عاجزين عن **الاستمرار في الاندماج بالجماهير ، والاستمرار في عدم التميز عنها** والاستمرار في فهم الافراد سواء أكانوا مسيسين أم غير مسيسين . ولا بد من التخلص من العصبوية اذا كنا نريد لاعضاء الحزب الا يكونوا مجرد اداة تنفيذية للقيادة ، بل ان يكونوا على العكس وسيطا حيا بين الجماهير والقيادة . وليس للقيادة ان «تحمل البرنامج الشيوعي الى الجماهير» أو ان «تحول الجماهير الى مناضلين محبوين بالوعي الطبقي»، بل ينبغي عليها ، بعد ان تكون قد حللت السيرورة التاريخية الموضوعية ، أن تعمل في المقام الاول على ان **تنمي وتطور** لدى الجماهير الصبو الثوري **الموجود فيها أصلا** ، والموجود حتى لدى البروليتاريا غير المسيسة والبورجوازية الصغيرة والفلاحين . ولو راجعنا صحافة اليوم الثورية ، لما وجدنا فيها من شيء تقريبا سوى كلام الحزب ، وللاحظنا انعدام اية رؤية ذكية للتناقضات القائمة بين مختلف فئات السكان . هذا ، مع ان المفروض في الارباع الثلاثة على الاقل من كل جريدة أن تكون مكرسة لتحقيق الاتصال ، اللفظي والفعلي، بالجماهير الواسعة ؛ والربع الباقي أكثر من كاف لتكرار المبادىء الكبرى للماركسية . وفي مستطاعنا ان نصوغ ما تقدم على النحو الآتي : الى أن نكون قد تعلمنا كيف نقدم النظرية بلغة بسيطة مفهومة من الجميع ، والى ان تتوصل الجماهير الى ايلاء النظريات اهتمامها ، ينبغي علينا باستمرار ان نقدم الشيء ذاته في كتابة

مزدوجة : باللغة الماركسية وبترجمة فورية الى لغة الناس الدارجة، هؤلاء الناس الذين لن نعدو بدون عملهم وتفهمهم ان نكون مماحكين مهذاريـن .

لقد جرت العادة ، عند مناقشة هذه المشكلات ، على طلـب وصفات جاهزة من «السياسة الجنسية» . وهذا الطلب يدلل في حد ذاته على عدم فهم للماركسية ولمهمة الثوريين الاساسية التي هي ان يعرفوا كيف يفكرون ويعملون باستقلال . ان المبـادىء لا يمكن توضيحها الا بمساعدة الامثلة ، لكن ما يصح بالنسبة الـى حالة خاصة قد لا يصح بالنسبة الى حال اخرى . وبيانا لما اقصده ساضرب بعض الامثلة .

الغناء والرقص الشعبيان بصفتهما من عناصر الشعور الثوري

لقد اكد لينين عن حق على ان الثوري يجب ان يولي اهتمامه لجميع ميادين الحياة . وينبغي ان نضيف ان عليه ايضا ان يطور وينمي الميل الثوري الخاص في كل ميدان . واذا ما ذهب بنـا الفكر الى الممثلين البروليتاريين والفرق الحمراء ، امكـن لنـا ان نلاحظ ـ باستثناء بعض الاعمال الجيدة حقا ـ ان الامر لم يتعـد حتى الآن النقل الميكانيكي للشعارات النقابية الى الفن كأن يلصق استلهام ثوري بشكل بورجوازي من اشكال الاغنية . لكن الـدور الرئيسي للفنانين الثوريين هو العمل بما عملت بـه «السياسـة الجنسية» في ميدانها : اعني المبادرة مـن الآن ، وفي نطـاق الراسمالية، الى تهيئة الميول والاشكال الثورية في ميدانهم الخاص بدءا من المادة والشكل القائمين الآن .

ان هذا ممكن التنفيذ بدون طول باع في «العلم» ، وذلك عن طريق

دراسة الحياة بصورة غير متغرضة ، حرة ، بلا آراء مسبقة ، وبالتالي ثورية . لقد شجع الحزب الشيوعي تأسيس مقاهي فنية حمراء حتى يطال عددا اكبر من الناس ، حتى غير المسيسين منهم، في الاجتماعات ويؤثر عليهم . وقد لوحظ بالمناسبة انه كلما كان الاداء اكثر فنية وموسيقية وشعبية ، كانت الفاعلية اكبر ؛ وانه على العكس كلما اقترب من الشكل البورجوازي بدا الشعار الثوري وكأنه ملصوق لصقا ، وكانت النتيجة تافهة . لكن ليس في الامكان تأسيس عدد كاف من المقاهي الفنية الحمراء لاجتذاب السكان قاطبة الى الاجتماعات . ويترتب على ذلك وجوب نقل الفن الثوري والشعور الثوري والايقاع الثوري والنغم الثوري الى حيث تعيش الجماهير وتعمل وتتألم . وهذا بكل تأكيد ممكن في الدول التي ما تزال ديموقراطية او نصف فاشية ، كما انه ما يزال ممكنا في الدول الفاشية الناجزة اذا احسن اختيار الوسائل المناسبة. ففي وسع الموسيقيين والراقصين والمغنين الثوريين ان يؤلفوا ببسيط الوسائل جماعات تضم فتيانا وفتيات وغلمانا ، بل راشدين ايضا. وتستطيع هذه الجماعات أن تذهب ، على غرار مغني الشوارع ، الى الساحات والاماكن العامة والى كل مكان يمكن ان يتواجد فيه المثلون المقبلون للثورة . وتستطيع بمساعدة موسيقى شعبية جيدة ورقص شعبي واغان شعبية ، هي في شكلها الراهن **مناهضة للراسمالية** وقابلة للاستخدام لصالح الثورة ومتكيفة مع أحاسيس المضطهدين أو قابلة لان تصبح كذلك ، ان تخلق وتنشر وترسخ عاطفيا ذلك الجو الذي نفتقر اليه اشد الافتقار لتحويل الجماهير الواسعة الى جماهير متعاطفة مع الثورة . ولن يصعب على الامزجة البيروقراطية ان تعترض بهذا الاعتراض او بذاك على الاقتراح الذي صفناه ، هذا اذا لم تؤكد ان في ذلك «ابتعادا عن الشيء الاساسي ؛ عن صراع الطبقات» . وانني لاجهل ما الصعوبات العينية التي يمكن الاصطدام بها هنا . ومن ينتظر وصفات جاهزة،

فلن يحرك ساكنا ابدا . بيد ان مبدأ «السياسة الجنسية» يظل مع ذلك صحيحا بشكل او بآخر : **لا بد من الفوز بالتاييد الفعلي من قبل الجماهير** . لكن الرباط العاطفي يستوجب ان يعرف المرء ، مثله مثل الطفل ازاء امه التي تحميه وترشده ، انه سيجد من يفهمه حتى في همومه ورغائبه السرية الدفينة ، بما فيها ، وعلى الاخص ، المضمار الجنسي الذي هو ابعد المضامير غورا واكثرها سرية .

العمل العلمي الثوري

ينطوي العمل الجماهيري ، فيما ينطوي ، على البحث العلمي وعلى مقاطعة العلم البورجوازي في جميع الميادين ، لا في ميدان الاقتصاد السياسي وحده . ان العلم البورجوازي يهيمن على تكوين الايديولوجيا الاجتماعية ، ولاسيما ان المجالات المعنية هنا هي المجالات الاكثر قربا الى الحياة . يكفي ان نأخذ مثال ادب السياسة الجنسية (النظرية العرقية) . وسرعان ما يتجلى لنا اهمال العمل العلمي الثوري في الاقطار التي هي على درجة راقية من الحضارة يجعل التأثير على الجماهير من جهة أولى اشد صعوبة ، ويضاعف الى حد كبير من جهة ثانية العراقيل التي تعيق اعادة تنظيم المجتمع بعد انتصار الثورة الاجتماعية . ناهيك عن ان حل مشكلة العمل العلمي الثوري يعني الى حد كبير حل مشكلة المثقفين ايضا .

هنا أيضا ينبغي ، اذا كنا نريد اعادة بناء الحركة الثورية ، أن نشرع بايضاح نمط العمل العلمي الثوري الذي كانت له الغلبة حتى الآن . ولا يسعنا هنا بالطبع الا أن نصوغ مبدأ ، وسوى ان نشير الى بعض الوقائع الهامة .

لقد جرى تطوير المنهج الماركسي لذاته من حيث انه فلسفة ، وبصورة رئيسية في شكل مساجلات لا نهاية لها حول «الصدفة والضرورة» ، وليست في متناول فهم عامة الناس . وكتاب كورت ساورلاند عن «المادية الجدلية» الذي لاقى نجاحا هو آية في نوعه: فهو خليط من الشكلية الفلسفية والانتهازية الحزبية . وقد لبث البحث في ميدان علوم الطبيعة جنينيا ؛ اما في ميدان العلوم الاجتماعية فالحال أقل سوءا بنزير يسير . والحق انه لم يكن له قبل بمواجهة معرفة البحاثة البورجوازيين . وحتى مجلة «تحت راية الماركسية» ألتي كانت تهدف الى زرع العلم الماركسي وبنائه ، تيبست وتحجرت ، فيما عدا بعض الابحاث القيمة ، وغرقت في الخطاب الشكلي والجدل المجرد . فلم تكن تتكلم عن مواضيع يمكن ان تشعل فتيل النقاش ، وان تسمح بالتطرق الى المشكلات التي قتلها العلم البورجوازي بحثا ؛ وكان كل ما تفعله هو أن تضيف الى هذه المشكلات محض مجاهرة بالعقيدة الثورية . ان هذه النقطة لجوهرية . فلا مجال البتة للاكتفاء ، على الجبهة العلمية ، بالتملص من المهمة عن طريق الانحاء باللائمة على الخصم لجهله بنظرية صراع الطبقات ، أو عن طريق المجاهرة الدائبة بالانتماء الى الثورة بدلا من القيام بعمل فعلي .

ان علينا أن ندرس أولا بدقة ، قطاعا فقطاعا ، وضع العلم البورجوازي وبنيته بوجه عام . فالعلم البورجوازي مجزأ الى عدد لا يقع تحت حصر من الممارسات الفردية ، وهو يستخدم في الاشباع الفكري للنخبة أو في تغذية النزعة الوصولية لدى رجال العلم من ذوي المرتبة الثانية . وغالبا ما يستعصي التفاهم على الباحثين حتى في الميدان الواحد . اضف الى ذلك ان العلم البورجوازي أكاديمي لا بلغته فحسب ، بل ايضا في اختياره لمواضيعه . لنقارن على سبيل المثال بين عدد الدراسات حول وضع النسيج المخي لدى المدمنين على الخمرة وبين عدد الدراسات

حول الظروف الاجتماعية التي تجعل من الانسان مدمنا علـى الخمرة . وكلما كان الميدان موضع البحث أكثر قربا الى الحياة ، كان العلم البورجوازي أكثر بعدا عنها ، ومحض نتاج لنظريـات فجة ، ولا هم له سوى التيه في خصومات حول هذه النظريات . نستطيع ان نقول اذن ان الرياضيات هي أقل العلوم تاثرا بالفكـر البورجوازي ، بينما لا يزال البحث في امراض السل عاجزا عـن فهم تاثير الغذاء الشعبي والسكنى البائسة على الرئة على الوجـه الصحيح . أما علم الامراض النفسية ، الذي ما يـزال الميـدان المصطفى لضيق الافق الذي لا حدود له، فلنقل ببساطةانهلا غرض له ، وهو الذي كان يفترض فيه أن يضع مباديء علـم الصحـة العقلية، سوى أن يكون أداة مكرسة لتجعل هذا الهدف مستحيلا. فلنكتف بهذه الامثلة لنبين أن ألبحث الماركسي مطالب بان يكـون قادرا على دخول المزاحمة في ميدان المعرفة التجريبية الخالصة ، لا بغية تجاوز العلم البورجوازي حقا وفعلا فحسب، بل ايضا وعلى الاخص كي يصبح قطب جذب للمثقفين والباحثين الشبان الذيـن سنكون بأمس الحاجة اليهم بعد الثورة .

ليس في مقدور العلم الماركسي ان يتطور بنقله شعار الصراع الطبقي الى العلم ، وباكتفائه بلصق بطاقـة «الصراع الطبقـي» . **ليس في مقدوره أن يتطور الا انطلاقا من مسالية كل ميدان مـن ميادين العلوم ، ومن مشكلاته ، ومن نتائجه** . ولا بد من أن نبين بصورة ايجابية **أين** يخفق العلم البورجوازي ،**ولماذا** يخفق، **وكيف** تلعب الفلسفة البورجوازية دور العقبة المعيقة للمعرفة ، الخ... وانما بعد أن نفعل ذلك ، وبعد أن نكون قد انجزناه ماديا ، يصير من حقنا أن نطلق على أنفسنا اسم العلماء الماركسيين وأن نعيّن صلات مختلف العلوم بمشكلة صراع الطبقات عـلـى الصعيـد الاقتصـادي .

ليست هذه الآراء محض صيغ خاوية جوفاء ، وانما هي مبنية

على تجربة تطور الاقتصاد الجنسي (١) . ينبغي اذن أن نوضح على الصعيد المبدئي ، وبمساعدة هذه الحالة الخاصة ، المسألة الواسعة المتعلقة بالمساجلة العلمية بين البروليتاريا والبورجوازية. فهذه المسألة هي مدخل الى المشكلة العامة لمبادىء السياسة الثورية .

ان من يعرف نوع النقاش الدائر داخل العلم البورجوازي يدرك انه لا جدوى ولا طائل من الرغبة في القضاء عن طريق المناقشة على فكرة الخصم الخاطئة . فقد اكتشف فرويد أن الامراض العقلية هي عاقبة الكبت الجنسي . وترزح الدول الراسمالية تحت وطأة عواقب الاقتصاد الجنسي البورجوازي ، بما تضمه من مستشفيات للمجانين ، ومن مؤسسات للمصابين بالامراض النفسية ، ومن هيئات للمساعدة . وقد قام مؤخرا واحد ممن يحلو لهم المزاح بالهاء نفسه بالحساب التالي : فنظرا الى تزايد عدد المرضى العقليين في الولايات المتحدة الاميركية ، لن يعود في هذه البلاد سوى مرضى عقليين في غضون ٢٥٠ عاما . وليس هذا بعيدا عن التصديق كما قد يبدو للوهلة الاولى . فحتى الاعوام الاخيرة كان ما يزال من المأمول أن تفرض اكتشافات فرويد الثورية نفسها على علم الامراض النفسية ، وأن تحتل بالتالي مكانة الصدارة مسألة الحماية من الامراض العصبية . ولو تم ذلك لكان الخطوة الاولى على طريق انفصال التصور الماركسي عن التصور البورجوازي في هذا المضمار ، من دون أن تلفظ كلمة الماركسية مسبقا . لكن علم الامراض النفسية لبث على العكس على حاله ،

---

١ ــ للاقتصاد الجنسي معنيان في كتابات رايش : فهو بمعنى عام بنية الحياة الجنسية في شروط اجتماعية محددة ، وبمعنى أضيق التحليل العلمي لهذه الشروط بمساعدة المنهج المادي ــ الجدلي . ــم ــ

واستمر في اداء دور الحماية الفكرية لتلك الفكرة التي لا معنى لها، فكرة «استعداد اصلي» تعود اليه علة الامراض العقلية . بل انه سجل ، فضلا عن ذلك ، انتصارات هامة على التحليل النفسي في عدد من النقاط الاساسية . وقد قال مؤخرا محلل نفسي لامع انه لا جدوى من تركيز الاهتمام على الحماية من الامراض العصبية ، وان الشيء الوحيد المطلوب هو الاهتمام بالعلاج الفردي . وهذا بدهي ، ما دامت مسألة الحماية من الامراض العصبية تقود الى مسألة النظام الجنسي البورجوازي باسره والى مسألة وجود الدين والاخلاق . وان لمن الغباء الرغبة في محاربة اخطاء فرويد العلمية«من وجهة نظر ماركسية» عن طريق التنديد بـ«رجعيتها» . وبالمقابل ، نكون قد انجزنا عملا ثوريا حقيقيا ومثمرا لو بينا بصورة ايجابية ما الذي يجعل من فرويد عالما عبقريا وما الذي يجعل منه فيلسوفا بورجوازيا من مدرسة قديمة كل القدم .

هل في وسعنا أن نأمل أن تجعل المناقشات العلمية كفة الميزان ترجح لصالح الثورة في الصراع على الجبهة العلمية ؟ هذا مستحيل . لكن هذا لا يعني انه ينبغي من الآن فصاعدا أن نرفض كل نقاش ، بل ينبغي على العكس أن نخوض فيه وأن ننتزع المواقع الاستراتيجية في جميع المنظمات العلمية بواسطة عملنا الفعلي . ينبغي أن نتعلم عن طريق المناقشة لماذا وكيف يفكر الباحث البورجوازي تفكيرا خاطئا فيغيب عنه جوهر الامور . تلك هي الطريقة الوحيدة كي نتثقف . لكن المعركة الحقيقية تدور على صعيد آخر . لنعد الى مثال علم الجنس : فليس ثمة من طبيب نفسي بورجوازي من سوية متوسطة سيقبل بفكرة أن العصاب والذهان والهوس ، الخ، تتأتى من اقتصاد جنسي فاسد نتن على نطاق الجماهير . وبالمقابل ، تولي الجماهير الواسعة كثيرا من الاهتمام لهذه المشكلات،وذلك بكل بساطة لانها تعاني منها الامرين، ولان البؤس النفسي وغباء الاطباء النفسيين ، الذين هم ساسة

النظام الجنسي البورجوازي ، ينعكسان بصورة عينية في جسمها بالذات . ان لفي وسعي التوكيد بأن كل عامل شاب يفهم العلاقات بين الحرمان الجنسي والانهيار النفسي واضطرابات العمل على نحو أفضل من غالبية الاطباء النفسيين في العالم قاطبة مجتمعين. وفي مستطاعنا أن نقول انه اذا توصلت الجماهير الى أن تحيا حياة صحيحة من خلال الاشباع الجنسي ، فان مسألة معرفة ما اذا كانت الامراض النفسية تعبر عن اقتصاد جنسي مضطرب ستجد حلها من تلقاء نفسها ، حتى بالنسبة الى المدافعين عن الاخلاق البورجوازية داخل المعسكر الماركسي ، والى الاطباء ورجال التربية الاشتراكيين الذين شوهتهم الافكار البورجوازية والذين «يخيل اليهم انهم لا يستطيعون ان يقبلوا بالتحليل النفسي»لانهم لا يفقهون فيه شيئا . ان المبدأ الذي ينص على وجوب ضمان تفهم الجماهير على الدوام يسري مفعوله ههنا ايضا ، اي في المضمار المقدس للعلم الذي يزعم انه لا يجوز مسه . ان «السياسة الجنسية» لا تدين بشعبيتها ولا تدين بالتفهم والقبول اللذين لاقتهما لدى فئات واسعة من سكان ألمانيا والنمسا لتنظيمها ، وهذا ببساطة لانه لم يكن لها من تنظيم . بل هي تدين بشعبيتها لمبدئها الذي ينص على ضرورة الطرح العلني لمشكلة الصحة الجنسية . ولهذا كانت بيروقراطية الحزب وستبقى عاجزة أمام «السياسة الجنسية» .

ان ما هو في غاية الصحة ، وبوجه خاص بالنسبة الى «السياسة الجنسية» ، ينطبق أيضا على كل ضرب من العلم الطبي أو غير الطبي ، وعلى سبيل المثال على دراسة مرض السل. والشرط الاول لذلك هو بالبداهة الا يحمل العلم الثوري الى الجماهير الواسعة تصورات خاطئة ، بورجوازية ، الامر الذي لا يمكن الا ان يقدم يد العون للرجعية ، بل ان يبدأ بان يوضح لحسابه الخاص مبادىء علم مادي ــ جدلي تجريبي ، قبل أن يتوجه الى الجماهير . وغني عن البيان ان الامتناع عن كل كلام خير من حمل

الشبيبة البروليتارية على اعتناق الفكرة البورجوازية التي ترى أن العلاقات الجنسية ضارة في فترة المراهقة مع اضافة عبارة : «لتحي الثورة» .

ان للجماهير غريزة مدهشة ازاء الملاحظات والمعاينات الصائبة، وهي غريزة لا تبقى محتجبة عن الانظار الا بقدر ما لا يقدم لها الحزب الثوري اي مدد ، بينما يقدم لها ألدجالون كل شيء ، ابتداء من الطاولات السحرية الى ينبوع بلدة لورد .

الخوف من الثورة

تريد الحركة الشيوعية ـ الثورية نفس ما تريده الحركة المسالمة البورجوازية الصغيرة : ابعاد شبح الحرب وحلول السلم على الارض . ويزعم التصور الثوري بحق أن هذا الهدف غير قابل للتحقيق الا عن طريق التصفية العنيفة للسيطرة الرأسمالية ، وعلى سبيل المثال عن طريق تحويل الحرب الامبريالية الى حرب اهلية. وبالمقابل ترفض ألنزعة السلمية الحرب الاهلية كما ترفض كل عنف ، من دون أن ترغب في الاعتراف بأنها تقدم بذلك ضمانة لإطالة عمر النظام المسبب للحروب . وترى الجماهير الواسعة اللاسياسية في الشيوعية «نصيرة العنف» . والحال أن شعور الجماهير الواسعة **حاسم ؛** فهي تخشى العنف ، ونرغب في السلم والطمانينة ، ولا تريد بالتالي أن تسمع بالشيوعية . وليس في الامكان التخلي عن نظرية الاستيلاء على السلطة بالعنف ، لكن بات من الواضح انه ليس في الامكان حمل الجماهير الواسعة على القبول بها . ولقد كانت احدى القوى الكبرى للحركة القومية ـ الاشتراكية انها استدرجت الجماهير واجتذبتها لا بمجرد التلويح بسراب «ثورة المانية» ، بل ايضا باعطائها وعدا باستيلاء **غير عنيف**

على السلطة . كانت الحركة القومية ـ الاشتراكية تاخذ اذن بعين الاعتبار عاطفة الجماهير الثورية وعاطفتها المسالمة **في آن واحد** ، وان بصورة غير واعية البتة بالطبع . يكفي اذن ان نطرح سؤالين لحل هذا التناقض . السؤال الاول يتعلق بالطريقة التي تتصور بها الجماهير العنف وتتمثله ؛ وتبين التجربة انها مسالمة وانها تخاف من العنف . اما السؤال الثاني فيتناول علاقة ضرورة استعمال العنف بموقف الجماهير منه . والجواب على هذين السؤالين ليس ولا يمكن ان يكون الا الجواب التالي : **كلما كانت القاعدة الجماهيرية للحركة الثورية أوسع ، تضاءلت ضرورة استعمال العنف** ، وتضاءل خوف الجماهير من الثورة . كذلك كلما كان التأثير الثوري أكبر في الجيش وفي جهاز الدولة ، كانت ضرورة العنف أقل . ولهذا تمت الثورة الروسية بأقل قدر ممكن من سفك الدماء . وتدخل الامبرياليين هو وحده الذي أدى الى حمام الدم. ولقد **كان واضحا للجميع** أن المسؤولية التاريخية تقع على عاتق الامبرياليين وعلى عاتق ما تبقى من الحرس الابيض . لكن وساعة القاعدة الجماهيرية منوطة بقدرة الحزب الثوري على ان يتكلم لغة جميع فئات الشعب الكادحة ، وعلى أن يعبر صحيح التعبير عن رغائبها وافكارها الثورية . وهذا يتطلب ممارسة واعية لعلم نفس الجماهير . واذا ما اعترض هنا «معترض مبدئي» ، كما جرت العادة ، بالقول بأن الثورة الروسية انتصرت بلا سياسة جنسية ولا علم نفسي جماهيري ، فاننا سنجيب بلا تردد أن الفلاحين الروس ما كانوا بدورهم متبرجزين تبرجز الفلاحين الاميركيين ، وان البروليتاريا الروسية ما كانت بدورها متبرجزة تبرجز البروليتاريا الانكليزية ، وان لينين ، اعظم عالم نفس جماهيري على مر الازمان، كان هو الذي يقود الثورة الروسية .

وكي نعود الى مسألة القاعدة الجماهيرية للثورة ، لنأخذ مثالا ثانيا ، اكثر عينية من سابقه .

الشرطي كانسان وكمامور دولة

كانت تعتلج الشرطة الالمانية تناقضات ظاهرة . وكان الحزب الشيوعي الالماني يصب جام غضبه في الصحف على «صفار الزورغيبليين» (١) و«العصابات البوليسية»الخ.. وكان ذلك ناجما بصورة منطقية عن نظرية الاشتراكية الفاشية . صحيح ان الغضب على الشرطة كان له ما يبرره ، لانها كانت تهاجم المتظاهرين وتطلق عليهم الرصاص باستمرار . لكن لا يجوز للقيادة الثورية أن ترخي لنفسها عنان مشاعر الغضب، حتى ولو كانت مبررة، وان تتجاهل بالتالي ان اية انتفاضة لن يكتب لها النجاح بدون تعاطف وتأييد فعال من جانب القسم الاكبر من الشرطة . اللهم الا اذا رافقها سفك للدماء لا يصدق . وهذا يصح ايضا بالنسبة الى الجيش . ولا يجوز للقيادة أن تنسى ابدا ان موظف الشرطة والعسكري هما من ابناء البروليتاريين او الفلاحين او المستخدمين الخ... وبدلا من ان تترك مشاعر الغضب والحنق تستولي عليها يجدر بها انتتساءل عما يجري في نفس الشرطي والجندي المتوسطين حتى يمكنهما الانفصال عن طبقتهما على هذا النحو . لست ادري ان كانت الخطوط العريضة التالية صحيحة كل الصحة، او لا. لكن لنتصور الشرطي ، الذي تحيط به هالة من الهيبة وهو يمتطي صهوة جواده ويعتمر خوذته ويمتشق سلاحه. لنتصوره وقد رجع الى بيته، الى وسطه العائلي البروليتاري بصفته اخا او زوجا او ابا ، بل لنتصوره وهو في الفراش او حتى في ثيابه الداخلية ! انه يرى الى نفسه في الشارع وكانه **«الدولة»** . والفتيات الصغيرات البروليتاريات يؤدين

---

١ ـ ايميلوس زورغيبل : مدير بوليس المدني مشؤوم السمعة . ـ م ـ

بصورة آلية حركة تدل على التبجيل والتوقير أمام حارس الامن ، لان أمهاتهن كن يهددنهن باستدعائه اذا «أسان السلوك» ، اي اذا عصين الاوامر ولامسن أعضاءهن الجنسية ، الخ... ان الشعور الذي يخالج الشرطي هو اذن الشعور بأنه حارس النظام ، ومن هنا نجده يكبر في عين نفسه . وهذا هو الجانب الرجعي فيه . لكنه في البيت والثكنة اجير بسيط يرتدي بزة مرقمة ، وخادم للرأسماليين محكوم عليه بالطاعة الدائمة . وهذا التناقض ، بين جملة من تناقضات أخرى كثيرة ، هو الحاسم بالنسبة الى الكفاح الثوري .

لقد كان معظم رجال الشرطة البروسية من الاشتراكيين ــ الديموقراطيين . وفي الاسابيع التي استولى فيها هتلر على السلطة قام الكثيرون منهم بحماية الشيوعيين وغيرهم من الاشتراكيين الذين كانت تلاحقهم قوات «الحرس الشخصي» . ويستطيع تحريض ثوري منطقي ، متماسك ، عقلاني ، ذكي ، أن يجد حلا بدون لجبة كبيرة للتناقض المستوطن في نفس الشرطي . ولنكرر بأنه ليس عندنا وصفات جاهزة نقدمها ، وانما فقط منهج في التحليل .

اليكم مثالا على ما لا يجوز عمله : حين تسلمت حكومة بابن مقاليد السلطة في تموز ١٩٣٢ اتخذت واحدا من اوائل قراراتها بتحظير الزيارات النسوية الى ثكنات الشرطة ؛ هذه الزيارات التي كانت مسموحا بها حتى ذلك اليوم . كانت الامزجة غاضبة اذن . وكان المناضلون في المنظمات القاعدية يتناهى الى اسماعهم من هنا وهناك أن الشبان من رجال الشرطة يتفوهون بما يلي : «كثيرا ما تركناهم يفعلون بنا ما يشاؤون من دون أن نحتج : فقد انقصت اجورنا ، وزيدت أوقات خدمتنا الى حد لا يطاق ، الخ... لكننا لن ندعهم يحرمون علينا النساء» . وقد بادرت «السياسة الجنسية» على الفور الى اعلام اللجنة المركزية بذلك، واسدت اليها

النصح بأن تأخذ بعين الاعتبار تلك الحالة النفسية، وبأن تدافع علنا عن صالح رجال الشرطة . لكنها لم تشأ أن تسمع شيئا من ذلك . ولقد كان تقديرها بلا ريب ان ذلك لا دخل له بصراع الطبقات . ولقد اثبتت التجربة أن الحالة النفسية المعادية للعمال تتلاشى وتزول سريعا حيثما تردد رجال الشرطة على مراكز الارشاد التي يشرف عليها أطباء «السياسة الجنسية» . بيد أن اللجنة المركزية أبت أن تطلع على هذه الوقائع لانها لا تدخل في باب «السياسة العليا» . لكن هذه الوقائع نفسها تبين على نحو لا يقبل الدحض أنه من المستحيل الوصول الى مختلف فئات السكان والتأثير عليها عن طريق المسائل السياسية المجردة ، وأن الواجب يقضي بشرح السياسة انطلاقا من حاجات الجماهير ومشاغلها .

اذا رفضنا أن نعير انتباها للجوانب التفصيلية ، التي قد تبدو ثانوية وعارضة ، في حياة الجماهير ، فلن تصدق الجماهير ــ وستكون على حق ــ أننا سنفهمها حين سنستلم مقاليد السلطة . لقد أقلّ مرة صديق لـ «السياسة الجنسية» عاملين مبتدئين في سيارته ، أثناء رحلة له . كانا شابين بروليتاريين حقيقيين ، لم يبلغا بعد سن الاقتراع ، المرتفع بما فيه الكفاية في البلد المعني . كانا يحبذان الاشتراكية ، لكنهما أضافا قائلين انهما لا يرغبان في الاهتمام بالسياسة ، بل يتركانها عن طيبة خاطر لرئيس المجلس الاشتراكي ــ الديموقراطي الموقر ، كما يتخليان له عن طيبة خاطر أيضا عن حقهما في الاقتراع شريطة أن يترك لهما الفتيات الجميلات اللاتي يصادفانهن في أسفارهما . وقد أكد الراوي أنهما ما كانا من المتسكعين أو المتشردين ، بل كانا من نمط متوسط من الشغيلة الشباب ، تملؤهما الحيوية . ومن يرفض في هذه الحال ان يعير اذنا صاغية ، وأن يفهم هذه الامور ، وأن يستخلص منها درسا ، فحالته ميئوس منها .

لقد هدم جنود من أصل عمالي وفلاحي في النمسا بطلقات

النار منازل العمال وقتلوا المئات من رفاقهم الطبقيين . ولم نعثر في اي صحيفة او في اي تقرير على ادنى اثر لمسألة معرفة كيف امكن لذلك أن يحدث وما سبل معالجته وتلافيه ، مع انه على هذا السؤال وعلى الرد الذي يمكن ان نجده له يتوقف الجواب على «المسألة الاستراتيجية الكبرى» ، مسألة معرفة ما اذا كان في الامكان في الوضع الراهن لتسلح جهاز الدولة أن تحدث انتفاضة وان يحدث قتال شوارع وكيف ؟ هذا هو لب الموضوع . وبدلا من ان يتراشق اولئك الذين يسمون انفسهم بأنهم مرشدو البروليتاريا وادلاؤها التهم والشتائم ويصفوا بعضهم بعضا بـ «خونة الطبقة العاملة» ، وهذا أمر لا طائل فيه ولا جدوى لانه ما من احد أعلم من غيره بهذه الامور ، اقول : بدلا من ذلك يجدر بهم ان يبدؤوا بطرح تلك الاسئلة ، وبفهم اولئك الجنود ، حتى يتعلموا كيف يمكن ان يكون لهم تأثير ونفوذ في الجيش والشرطة .

تطوير السياسة الثورية
انطلاقا من حاجات السكان

أثناء مناقشة دارت بين ممثل «السياسة الجنسية» وممثل اللجنة المركزية ، بييك ، في عام ١٩٣٢ ، شرح هذا الاخير أن التصورات المتضمنة في «هجمة الاخلاق الجنسية» (١) تناقض تصورات الحزب والماركسية . وحين طلب اليه أن يبرر كلامه قال : «انتم تنطلقون من الاستهلاك ، ونحن من الانتاج ؛ لستم اذن من الماركسيين» . وسأل ممثل «السياسة الجنسية» هل الحاجات

---

١ - كتاب مشهور لرايش .

في خدمة الانتاج ام ان الانتاج على العكس لا يتجاوب مع الحاجات. ولم يفهم بييك هذا السؤال . وانما بعد انصرام عاملين كاملين تبين للعيان بوضوح أين يكمن الفرق : فالنزعة الاقتصادية بنت عملها كله ودعايتها كلها على الجانب الموضوعي من الحياة الاجتماعية ، اي على تقدم القوى الانتاجية ، والتناحرات الاقتصادية بين الدول ، وتفوق التخطيط السوفياتي على الفوضى الراسمالية ، الخ ، و«أعادت ربط هذه السياسة الكبرى بالحاجات اليومية» ، بيد أن هذا النوع من الربط ادى الى فشل ذريع . وبالمقابل ، شرحت «السياسة الجنسية» مطالب الثورة الاجتماعية بدءا من الحاجات الذاتية ، واستنبطت جميع المشكلات السياسية من مشكلة معرفة ما الحاجات التي ينبغي تلبيتها لدى الجماهير وكيف السبيل الى ذلك ، فأثارت بذلك اهتماما حاداً لدى الناس الاكثر لاتسيسا في جميع الاوساط . ولا يتجلى هنا الفرق المبدئي بين العمل الثوري الحي وبين «ماركسية» الحزب الدوغمائية والمدرسية فحسب ، بل ايضا السبب الذي حال بين خيرة المسؤولين ، «المأخوذين في دوامة» السياسة العليا ، وبين فهم الطريقة التي تطرحبها «السياسة الجنسية» المشكلات والمعضلات. صحيح ان العديد من المسؤولين في الكومنترن يحسون بهذه الثغرة في عملهم ؛ لكنهم لا يتوصلون مع ذلك الى تحديد روابط السياسة العينية بحاجات الجماهير . هكذا قال مانويلسكي في تقريره الى الدورة السابعة عشرة للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي حول «نضج الازمة الثورية» (القسم الثالث ، «وضع فروع الكومنترن» ، نقلا عن «راند شو» ، العدد ١٦ ، ص ٥٨٦):

«لنأخذ مثال **اممية الشبيبة الشيوعية** . فقد كونت **اممية الشبيبة** طوال سنين عديدة ، بقيادة الكومنترن ، جيلا رائعا من البلاشفة الشبان الذين برهنوا اكثر من مرة على تفانيهم الذي لا يعرف حدودا للقضية الشيوعية . **لكنها لم تتمكن من تاصيل**

جذورها عميقا في جمهرة الشبيبة العاملة . كما ان الاشتراكية ـ الديموقراطية لا تطال بدورها هذه الشبيبة . ان الشبيبة في البلدان الرأسمالية محصورة بالملايين في المنظمات الرياضية التي أنشأتها البورجوازية وهيئات اركانها وخوارنتها . وفي المانيا شق شطر من الشبيبة العاطلة عن العمل طريقه الى التكنات الفاشية . لكن اعضاء «اتحاد الشبيبة الشيوعية» لم يفهموا البتة هذا المذهب كامل الفهم . فقد ناضلوا بشجاعة ضد الفاشيين في المانيا . وفي العديد من الاقطار قاموا بعمل جيد في الجيش ، وحصدوا بسبب ذلك مددا طويلة من السجن . لكن ان يجدوا لانفسهم موطىء قدم في منظمة رياضية كاثوليكية على سبيل المثال ، تضم عشرات الالوف من الشغيلة الشبان، فهذا امر يصعب عليهم بنفس الدرجة التي يصعب بها على البابا ان ينضم الى «رابطة الملحدين» ليقوم فيها بالدعاية للكاثوليكية. بيد ان اعضاء «اتحاد الشبيبةالشيوعية» والشيوعيين لا تردعهم اعتبارات الوقار والهيبة ، كما هو شان الحبر الاعظم . ان من واجب المنظمات الشيوعية و«اتحاد الشبيبة الشيوعية» ان تكون على درجة كافية من المرونة: فعليها ان تتواجد حيثما وجد شغيلة، وعليها ان تكون حاضرة في المنظمات الرياضية، وفي منظمات اوقات الفراغ مثل «دو بولافورو» في ايطاليا ، وفي معسكرات العمل المدني ، لكن عليها قبل كل شيء ان تكون متواجدة في المنشآت والمشاريع» .

هذا صحيح مطلق الصحة ، لكنه يفتقر الى ما هو اساسي . فالشاب المنتسب الى «اتحاد الشبيبة الشيوعية» والعامل في المنظمات المسيحية أعزل تماما في مواجهة المسيحي الشاب اذا كان سلاحه الوحيد التحاليل الاقتصادية ـ السياسية التي تقدمها له «اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية» . والحق انه لا بد له من ان يعرف ما ينبغي ان يتكلم عنه الى المسيحي الشاب وما الحلول التي تقدمها الشيوعية ، لا لمشكلات الاقتصاد ، وانما قبل كل شيء

للمشاغل الخاصة التي تأسر اهتمام المسيحي الشاب . وانما بدءاً من هذه المشاغل ينبغي ان نستنتج رويدا رويدا ضرورة تخطيط اشتراكي كأساس لحل المشاغل الشخصية . وعليه ، تتفق «السياسة الجنسية» من حيث المبدأ مع مانويلسكي حول هذه المشكلة التنظيمية الداخلية . لكن الفروق تصبح جسيمة ما ان نصل الى المسائل العينية ، الى ما يأسر اهتمام الشاب ، سواء أكان مسيحيا ام غير مسيحي ، الى التجربة المعاشة العينية التي يتوجب على الشاب العضو في «أتحاد الشبيبة الشيوعية» ان يطور عمله ونشاطه بدءاً منها . وفي مقدورنا ان نقول الشيء عينه عن جميع التعليمات والتوجيهات الشكلية الصادرة عن قيادة الكومنترن . فهذه الاخيرة تقول بحق انه من الواجب القيام بعمل جماهيري ، لكنها تعترض على **المضامين العينية** للعمل الجماهيري المطلوب انجازه ، ومعارضتها تتزايد حدة طردا مع ابتعاد هذه المضامين عن السياسة العليا واقترابها مما يحظى باهتمام الاشخاص . وهي تصادر مبدئيا على ان القضايا الشخصية والقضايا السياسية على طرفي نقيض ، من دون ان تتبين علائقهما الجدلية . والحال اننا لا نستطيع ان نقول فحسب ان هناك مشكلات ذات طابع شخصي هي في الوقت نفسه مشكلات نمطية، نموذجية ، على صعيد النظام الاجتماعي ، كمشكلة البحث عن الشريك الجنسي او مشكلة السكن بالنسبة ألى الشبان على سبيل المثال ، بل ينبغي ان نضيف ان السياسة عينها بوجه عام لا تمدو ان تكون تعبيرا عن تداخل مصالح مختلف الفئات الاجتماعية وطبقات الاعمار في المجتمع وتنازعها .

باختصار ، تتميز السياسة الثورية عن كل ضرب من السياسة البورجوازية بوضعها السياسة في خدمة تلبية حاجات الجماهير، بينما تبني البورجوازية سياستها كلها على الزهد والتنازل الملقنين للجماهير على مدى التاريخ .

يعلم من عمل في الخلايا الشيوعية كيف تكون ردود أفعال اعضاء الحزب انفسهم على «السياسة العليا» . فقد جرت العادة على تقديم تقرير سياسي في الاجتماعات الاسبوعية . فكان واحد من «المقررين» يعرض بقدر او بآخر من التوفيق سياسة البورجوازية ، بينما يصغي الاعضاء بقدر او بآخر من الاهتمام ، ولكن على الدوام بصورة سلبية . ولم تكن لتدور مناقشات الا في الخلايا المؤلفة من غالبية من المثقفين او من الكوادر المحنكة التي انقضى زمن طويل على تمرسها ، فتطرح على بساط البحث مسائل السياسة العليا . وفي الشهور السابقة لتسنم هتلر السلطة تضاعفت الحالات التي كان فيها البروليتاريون من اعضاء الخلايا ، ممن ليس لهم بالطبع باع طويلة في السياسة العليا ، ولكن ممن كانوا يدركون ان ثمة شيئا تلوح نذره في الافق ، يبادرون الى مقاطعة التقارير السياسية التي لا طائل فيها والى القول بكل حزم : «لقد استمعنا طوال سنين وسنين الى تقاريركم عما تريده البورجوازية وعما تفعله . وفي ودنا الان لو نسمع ما ينبغي علينا عمله وما نوع السياسة التي يتوجب علينا انتهاجها» . وما كان لدى المقررين ما يستطيعون الادلاء به حول هذا الموضوع . ولما كان النجاح الذي يحرزه خطباء «السياسة الجنسية» ، الذين كانوا يعرفون كيف يثيرون اهتمام الحزب واللامنظمين بالسياسة بمعالجتهم المشكلات السياسية انطلاقا من الحاجات والهموم الشخصية ، اقول : لما كان هذا النجاح قد بدأت تعم انباؤه في بعض الاحياء ، فقد بادرت بعض كوادر الحزب الى الاتصال ب «السياسة الجنسية» لتزودها بمقررين ، وذلك رغبة منها في اجتذاب «اللامنظمين» الى الاجتماعات المسائية . وكانت الدعاية في اوساط النساء والشبيبة تمنى بالفشل في كل مكان ، لان الكلام عينه كان يتردد باستمرار حول «الوضع السياسي» ، فلا يخلف وراءه غير السأم ذاته . وبالمقابل ، كان خطباء «السياسة

الجنسية» متمرسين على اعطاء الاولوية لمعالجة المشاغل الشخصية للمرأة والمراهق والعاطل عن العمل الخ ... وكانت المواضيع التي تطرح على بساط البحث غير ذات طابع سياسي ، وعلى سبيل المثال : «كيف أربي طفلي ؟» او بالنسبة الى الشبان : «الفتيان والفتيات في التنظيم» . وكانت كل مناقشة لمسألة تتعلق بالحياة الشخصية تثير اهتماما كبيرا ومساهمة حية من قبل الحضور ، وتقود بانتظام الى المسائل السياسية الكبرى التي ما كانت الا لتخنق العاطفة الثورية لو تلبست شكلا آخر . وبدلا من أن تمارس «السياسة الجنسية» «السياسة العليا» زاعمة انها «تعيد ربطها بالحاجات اليومية»، نافيةهذه الاخيرةفي الحقيقة والواقع، اتخذت لنفسها قاعدة وهي الا تنطلق ابدا الا من المشكلات الشخصية لتصل من ثم الى سياسة هتلر وبرونينغ على سبيل المثال . ونظرا الى ان هذا المنهج يقوم على بلوغ المعضلات الكبرى للسياسة الطبقية انطلاقا مما هو شخصي ، بدلا من ان يحبس نفسه في السياسة العليا ، فقد أطلق عليه ممثلو الحزب اسم «الانحرافية المناهضة للثورة» . لكن كوادرهم لجأت الينا وطلبت مساعدتنا في اورانينبرغ وجوتربرغ ودرسدن وفرانكفورت وستيغليتز وشتيتن الخ ، وذلك للتأثير على «اللامنظمين» واجتذابهم . وقد امكن لـ «السياسة الجنسية» ان تجمع العشرات من الاشخاص في المنشآت الكبيرة المصابة بعدوى القومية ـ الاشتراكية والموصودة الابواب منذ سنوات دون النقابات الحمر ، وذلك بمجرد اعلانها عن المواضيع التي ستناقش في الاجتماعات ، كما امكن لها ان تنفخ الحياة في نشاط الخلية وأن تثير اهتمام النساء والمراهقين غير المسيسين . بيد ان حركة «السياسة الجنسية» كانت فتية وفي غاية الضعف ، وقد وضعتها قيادة الحزب موضع ريبة وشك ، ثم حظرتها . والواقع ان ما عدته قيادة الحزب انحرافا عن

السياسة وما وصفته بالرجعية كان هو هو الدعاية الثورية الحقة. والبرهان على ذلك يتمثل في الاهتمام الذي بات الافراد غير المسيَّسين يولونه في خاتمة المطاف للسياسة .

لا تستطيع اي منظمة ثورية ان تنتزع لواء النصر بدون تسييس ثوري للجماهير التي لا تكترث بالسياسة العليا من حيث انها سياسة عليا . ولم تكن الاعمال المسماة بالثورية ، والتي كانت تترك الجماهير بقدر او بآخر على لامبالاتها، الا محاولات لـ«تعبئة» الجماهير عن طريق المثال والقدوة . ولقد كان مآلها الفشل في معظم الاحوال .

ان التجارب التي قامت بها «السياسة الجنسية» في المانيا قابلة للنقل الى كل ميدان من ميادين السياسة الثورية . فلن يكتب لاحد النجاح في تسييس الجماهير اللامبالية اذا اكتفى بأن يضرب المثل او بأن يطلق نداءات خاطئة بسيكولوجيا «الى شغيلة العالم قاطبة» . وحتى تتحول الجماهير الى الايجابية والفاعلية سياسيا، فلا بد ان تطرح على نفسها **السؤال الجوهري** في السياسة الثورية : «ماذا نريد ؟ وكيف سنحصل عليه ؟». واذا صح ـ ونحن لا يخامرنا ريب بذلك ـ ان الثورة الاجتماعية تحقق مشروع ديموقراطية اجتماعية ، اي تشرك اشراكا فعليا جميع السكان في السياسة ، في السياسة الثورية لا في المناورات الدبلوماسية البورجوازية ، واذا صح انها لا تكتفي بـ «اثارة اهتمام» الجماهير الواسعة بتنظيم الحياة الاجتماعية بل تعهد اليها ايضا بجوهر هذه المهمة ، ترتب على ذلك بالضرورة ان العمل الثوري يستلزم بعض المبادىء التي لا يمكن هنا رسم معالمها العريضة الا بواسطة الامثلة. ونحن لا نزعم اننا نحيط بجميع جوانب المسألة عن طريق هذه الامثلة ، ولكن هدفنا ان نبين انه يمكن ، وكيف يمكن ، ان نوقظ نشاط الجماهير الكامن .

من الواضح انه لا يمكن ابدا لاية قيادة ثورية ان تتوقع وتوجه جميع المهام وجميع المعضلات التي تثيرها الحيـاة الاجتماعية . والدكتاتورية البورجوازية هي وحدها التي تفعل ذلك ، لانها لا تقيم وزنا لحاجات الجماهير ، ولانها تقوم اساسا على القبـول الظاهري من جانب الجماهير وعلى خمولها السياسي الفعلي . ولقد امسى العمل مشتركا منذ زمن طويل في ظل النظام الراسمالي القائم ، في حين ان تملك منتجات العمل هو الذي لا يزال مسألة شخصية خاصة برب العمل .

وتضع الثورة الاجتماعية نصب عينيها ، في ما تضع ، تشريك المنشآت والمشاريع الكبيرة ، اي العهد بها الى تسيير الشغيلـة الذاتي . ونحن نعلم ما الصعوبات التي اعترضت سبيل الاتحـاد السوفياتي في البداية والتي لا تزال تعترضه الى اليوم في مسألة التسيير الذاتي . فالعمل الثوري في المنشآت لا يمكن ان يفلح الا اذا ايقظ اهتمام الشغيل بالمنشأة في شكل اهتمام **فعلي** بالانتاج، وإلا اذا اعتمد كلي الاعتماد على هذا الاهتمام . لكن ليس للشغيل من اهتمام بالمنشأة من حيث انها منشأة ، وليس له بوجه خاص من اهتمام بالمنشأة في شكلها الراهن . وحتى يخامره هـــذا الاهتمام الثوري في أقرب اجل ، فلا بد ان **يبدأ من الان ، في ظل الرأسمالية بالذات ، بان يتصور بان المنشأة تخصه وتعود اليه .** من الضروري اذن ان يعي الجهاز العامل ان المنشأة وإدارتها هما من اختصاصه **وحده دون غيره** ، على اساس عمله ، وان هـــذا الحق ، الذي يدعيه الراسمالي لنفسه **في الوقت الراهن** ، يقترن بعدد من الواجبات ، وفي مقدمتها واجب الاطـــلاع على تسيير المنشأة وتنظيم المنشأة ، الخ ، اذا كان يريد ان يكون السيد في بيته . وعلى الدعاية ان تظهر بوضوح ان السيد الحقيقي للمنشأة

ليس المالك الحالي للرأسمال ولوسائل الانتاج ، وانما العمال . وثمة فرق كبير من وجهة النظر البسيكولوجية بين القول : «نحن نصادر ملكية كبار الرأسماليين» وبين القول : «نحن نضع يدنا على ملكيتنا المشروعة» . ففي الحالة الاولى ياتي رد فعل العامل ، سواء أكان مسيسا ام غير مسيس ، تجاه شعار المصادرة في شكل حرج وشعور بالإثم ، كما لو انه يتملك ملكية الغير ؛ وفي الحالة الثانية يعي شرعية حقه في الملكية ، المبنية على عمله ، ولا يعود من تأثير على الجماهير للايديولوجيا البورجوازية التي تؤكد «عدم جواز المساس بالملكية الخاصة» لوسائل الانتاج . ذلك ان المعضلة الحقيقية ليست تبشير الطبقة السائدة بهذه الايديولوجيا ، بل تغلغل هذه الاخيرة في الجماهير وتمكنها منها وارتضاء الجماهير بها.

اليس من واجب التنظيم الثوري ، كل تنظيم ثوري ، ان يفهِم الجهاز العامل في المنشأة بانه هو سيدها المشروع ، وان عليه أن يهتم من الان بمهامها ؟ وكما كانت المستخدمات البورجوازيات الصغيرات والعاملات يسعين ، في اجتماعات «السياسة الجنسية»، الى ان يفهمن كيف يمكنهن ان يربين اطفالهن على خير وجه ، وكيف ينظمن العمل المنزلي ، وكما كن يتساءلن عما اذا لم يكن من الافضل تنظيم مطبخ جماعي في كل شبكة من المساكن ؛ كذلك يستطيع العاملون في المنشآت ويتوجب عليهم من الان اعداد العدة لاخذ مسؤولية المنشأة على عاتقهم . ان عليهم ، بالاعتماد على وسائلهم الذاتية ، ان يقيّموا ويتعلموا ويفهموا كل ما هو ضروري لتحقيق ذلك ، وافضل الطرق الى تحقيق ذلك . ومن الممكن لتجربة السوفييتات ان تساعدهم في هذا المضمار ، لكن ليس لها أن تغنيهم عن عملهم وان تحل محله ، لان الوضع والامكانيات مختلفة . ولا مجال البتة للشك في ان هذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكن ان تحمل المستخدمين على الاهتمام بمسألة الثورة الاجتماعية ، لا عن طريق تقارير متعالية عن الوضع

السياسي والخطة الخماسية . ومن الضروري ان يسبق الممارسة الفعلية للسلطة من قبل العاملين في المنشآت **استيلاء بالفكر عليها** عن طريق اعداد عيني . وهذا ينطبق على كل منظمة للشبيبة ، وعلى كل منظمة رياضية ، وعلى كل منظمة عسكرية . وهـــذا وحده ، ما يدعى «ايقاظ الوعي الطبقي» . فليس من الممكن ان يكون للقيادة الثورية من مهمة اخرى سوى التوضيح التام ، قبل استلام السلطة، لتلك المراحل الاولى من **الديموقراطية الاجتماعية الثورية** ، وتسديد خطى الاستعدادات ، والمؤازرة بمعرفة اوسع وأشمل . وحين ينخرط الشغيل في العمل العينيعلى هذا النحو، يشعر حق الشعور بأنه سيد المنشأة ، ولا يعود يرى في رب العمل واهبا للاجور بل مستغلا لقوة عمله . واذا كان المفروض بالقيادي الثوري أن يعلم ما فضل القيمة ، فان على الشغيل بدوره ان يعلم بدقة ما الربح الذي يجنيه رب العمل من عمله . **ذلك هو الوعي الطبقي** . واذا ما أضرب الشغيل في هذه الحال ، فسيكون قـد فعل ذلك ، لا بدافع التضامن العاطفي وحده ، ولا بدافع الاخلاص للقادة النقابيين وحده ، وانما **في سبيل مصالحه الذاتية** ، ولن يكون في مقدور اي مسؤول نقابي من الان فصاعدا ان يخونه . انه سيناضل في سبيل مصالحه بالذات ، بل أنه ، فضلا عن ذلك، سيفرض الاضراب على القيادات المتخاذلة ، وسينحيها جانبا اذا لم تساير الحركة . ان الدعاية الثورية لم تكن حتى الان الا نقدا سالبا ، وعليها ان تتعلم ايضا كيف تكون بناءة ، تثقيفية ، ايجابية.

ونفس هذا المبدأ القائم على اساس الوعي **العملي** يصـــح بالنسبة الى الشبيبة من مختلف الاوساط . فاذا كانت الشبيبة تعمل في المنشآت ، فستشارك في العمل النقابي العيني ؛ واذا كانت لا تعمل فانها ستولي اهتمامها لتنظيم الحياة الشخصية ، ولحل النزاع مع الاهل ، ولحل المشكلة الجنسية ومشكلة السكنى. وهي بذلك لن تخلق بنفسها اشكالا جديدة للحياة الاجتماعيـــة

فحسب ، اشكالا يتوجب عليها في البداية ان تبتكرها ، ثم ان تحققها ، واخيرا ان تحامي عنها ، ولكنها ايضا ، وعلى الخصوص، لن تعود تسمح لاحد بأن يروضها ويطوّعها . ليس ثمة فائدة تجنى من التقارير عن الوضع السياسي ، او حتى عن «مشكلة الشباب الجنسية» . فمثل هذه التقارير تظل ضربا من العمل التوجيهي الآتي من اعلى . ان على الشبيبة ان تبدأ من الان بتنظيم حياتها الخاصة . وهي لا تستطيع ولا يجوز لها ان تبدأ بالانشغال بالشرطة وبالسلطات . وسوف تتبين بسرعة انها تصطدم بحواجز منيعة ، وانه يتعذر عليها حتى أن تبدأ بتنظيم الاشياء الاكثر بساطة وبداهة بالنسبة الى الشباب ؛ وهكذا ستتعلم عمليا ما كنه السياسة الثورية وما جوهر المطلب الثوري . فيوم ستسعى ، على سبيل المثال ، الى ان تحصل على مواد مانعة للحمل ، والى ان تنظم المساعدة المتبادلة في مجال السكن ، الخ ، ويوم ستتدخل السلطات الراسمالية ، بالتهديد اولا ، ثم بالاعتقالات ، واخيرا باحكام بالسجن قاسية ، ستحس الشبيبة احساسا مباشرا بانها عرضة للاضطهاد، وستكتشف كيفية هذا الاضطهاد . وستتعلم بالتالي ان تناضل لا في الفراغ ، لا على اساس شعارات يتم تلقيها بواسطة الهاتف ، وانما من خلال الاصطدام بوقائع الحياة القاسية في ظل الراسمالية. هذا ما تعلمته جمعيات الكشاف التشيكية في عام ١٩٣١ ، حين اصطدمت برجال الدرك وجرت اعتقالات بين صفوفها لانها مارست الحياة الجنسية تحت الخيام . وقد قاتلت يومئذ بقبضاتها في الشارع ضد القوة العامة ذودا عن حقها . ومن غير المباح اليوم في المانيا النوم تحت الخيام بدون شهادة زواج ، والشبيبة الالمانية تتبادل الهمسات ضد هذا الحظر ، لكنها لا تزال تلتزم الهدوء ؛ فهي تفتش عن اماكن اخرى وتتحايل على الحظر . بيد ان وعيها

لحقها في تنظيم حياتها الخاصة سيرغمها على القتال في سبيل هذا الحق . وكل ما تفتقده هو سند ، تنظيم ، حزب يفهمها ويبذل لها يد العون ويحامي عنها .

خاتمة

ليس وعي الجماهير الطبقي معرفة القوانين التاريخية او الاقتصادية التي تسوس حياة البشر ، ولكن معرفة ما يلي :

١ ـ الحاجات الحيوية لكل فرد في الميادين كافة .

٢ ـ طرق تلبيتها وامكانياتها .

٣ ـ العقبات التي ينصبها في وجهها مجتمع الاقتصاد الفردي .

٤ ـ ضروب الكبت والكف والقلق التي تمنع كل فرد من ادراك متطلبات حياتهبالذات (ان الصيغة التي تقول : «العدو في معسكرك» تنطبق بوجه خاص علىالكبت والكف العقليين اللذين يحيط بهما كل مضطهد نفسه) .

٥ ـ عدم قابلية قوة هذا الفرد للقهر امامقوة المضطهدين بشرط ان تتحد في شكل حركة جماهيرية .

اما الوعي الطبقـــي للقيادة الثورية (للحـــزب الثوري) فهو خلاصة المعرفة والاهليات التي تتيح امكانية التعبير عما تعجز الجماهير عن التعبير عنه . وليست التصفية الثورية في هـــذه الحال لنير الراسمال سوى العمل الاجمالي المتولد عن وعـــي الجماهير بعد ادراكه كامل نموه ، حين تكون القيادة الثورية قد فهمت الجماهير في الميادين كافة .

ملحق :

مبادىء برسم النقاش حول اعادة بناء الحركة العمالية

خلاصة التغييرات المنهجية التي تفرض ضرورتها ملاحظـة الاخطاء الماضيـة

مبدأ : من المستحيل تقديم تعليمات مفصلة . والمطلوب وجود مبادىء للتحليل وللحكم محددة تحديدا جيدا ليجري تطبيقها على الحالات الخاصة . فاذا كان المبدأ صالحا ، فلن تقترف اخطاء في الحالات الخاصة . واذا كان المبدأ مغلوطا ، فسيكون خطر الوقوع في الاخطاء كبيرا ولن يكون مرد الاحكام التفصيلية الصائبة الا الى المصادفة .

للحكم على الحدث السياسي

١ ـ كي نفهم كل سيرورة ثمة سؤالان يفرضان نفسهما :
أ ـ هل هذه السيرورة ثورية الاتجاه او رجعيته ؟ ب ـ هل يعتقد

اولئك الذين ينجزونها بانهم يعملون باتجاه الاشتراكية او باتجاه الراسمالية ؟ (ان المظهرين الموضوعي والذاتي مختلفان في غالب الاحيان : ف «ف.هـ» مضادة للثورة موضوعيا ، وثورية ذاتيا) .

٢ ـ حتى نكون على مستوى المهمة ، من الضروري عند اصدار كل حكم واتخاذ كل موقف ان نطرح على انفسنا الاسئلة التالية :

ماذا يجري بين مختلف فئات الجماهير ؟

ما ايجابياتها وما سلبياتها بالنسبة الينا ؟

كيف تعيش الاحداث السياسية الجماهير الواسعة غير المسيسة ، او المشوهة من قبل الايديولوجيا ؟

ما شعور الجماهير حيال الحركة الثورية ؟

٣ ـ ان كل حدث متناقض ، ويشتمل على عوامل جاذبة وعوامل نابذة للثورة ؛ وليس التنبؤ او التوقع بممكن الا بشرط :

أ ـ فهم التناقضات .

ب ـ صياغة مختلف احتمالات تطور الموقف (العوامل الرجعية والثورية ، على سبيل المثال ، في الفاشية) .

٤ ـ تشتمل السيرورة الاجتماعية في آن واحد على قوى تقدمية او رجعية ، ويكمن كنه العمل الثوري في فهم هذين النوعين من القوى وفي تشجيع الميول الثورية (الشبيبة الهتلرية على سبيل المثال : الحرية الجنسية قوة ثورية ، والايمان بالسلطة قوة رجعية) .

٥ ـ ليست الحاجات في خدمة الاقتصاد ، وانما الاقتصاد في خدمة الحاجات .

٦ ـ من الضروري ان نتصور رجال الشرطة وغيرهم من الخصوم وهم في ملابسهم الداخلية . وكذلك الحال بالنسبة الى كل سلطة يهاب جانبها .

٧ ـ ان الايحاء كوسيلة لاجتذاب الجماهير لا يليق الا بالرجعية السياسية ؛ فليس للحركة الثورية ان توحي ، وانما عليها ان تقول كل شيء للجماهير ، وأن تحزر وتصوغ رغبات الجماهير المبهمة غير المفصح عنها (ان نظرية الصعود الثوري ضرب من الايحاء) .

٨ ـ ان الدبلوماسية السرية هي شكل سياسة الرجعية . اما السياسة الثورية فقوامها التوجه الدائم الى الجماهير ، ونبـذ السياسة السرية (مثال على العكس : خطاب ليتفينوف في الدورة العامة الاخيرة لمؤتمر نزع السلاح) .

٩ ـ اذا اسقطنا على الجماهير رغباتنا الخاصة واذا لم نحكم على الموقف الفعلي حكما مستقلا عن رغباتنا الخاصة ، نكون قـد اسقطنا من حسابنا الرغبات التي تمكن تلبيتها بسهولة تفـوق سهولة تلبية اي رغبات اخرى (اسقاط الوضع على الجماهير كما تراه جماعة فئوية صغيرة) .

١٠ ـ تقود النزعة الاقتصادية الى الفشل والاخفق : فالانسان هو الذي يصنع التاريخ ، لا الآلة . الانسـان يستخدم الآلة . والاقتصاد لا يتحول مباشرة الى وعي ، لكن هناك العديد مـن الحلقات المتوسطة ، كما ان هناك تناقضات (على سبيل المثال : العامل المسيحي ، المرأة الفقيرة المناصرة للنازيين ، الخ ...) .

١١ ـ من البدهي ان تتمرد الجماهير على البؤس المـادي والجنسي . وعلينا ان نتذكر على الدوام ان المشكلة الحقيقية هي انه ليس من المستبعد ان تتصرف الجماهير في عكس مصلحتهـا («السلوك اللاعقلاني») ؛ على سبيل المثال : ان تدافع النساء عن الزواج حتى حين يكون عليهن عبئا ، ان ينسى العمال الاستغلال حين يكون المصنع في ازدهار ، ان يناصر الشبان القمع الجنسي .

١٢ ـ ينبغي الا نحمل الوعي الطبقي الى الجماهير في شكـل

دروس يلقيها الاستاذ من أعلى المنبر ، وانما ينبغي ان ننميه ونطوره بدءاً من حياة الجماهير . لنسيس الحاجات جميعا .

١٣ ـ ان نشرح بوضوح تام ان البروليتاريا حين تدافع عن مصالحها الخاصة تمثل في الوقت نفسه مصالح الشغيلة قاطبة. لا تعارض بين البروليتاريا والطبقات المتوسطة . والبروليتاريا الصناعية في ظل الراسمالية المتقدمة اقلية عدديا ، ناهيك عن انها متبرجزة .

١٤ ـ لا منشورات بالمرة (او غير ذلك من أشكال التحريض) خير من منشورات رديئة . حذار من اصابة الجماهير بخيبة الامل! ليست النيات هي الشيء الحاسم ، وانما التأثير على الجماهير ! لنوطد جسر الثقة قبل اي محاولة للتأثير على الجماهير ، وعلى سبيل المثال : ان نسلم بأننا نجهل بهذا الشيء أو بذاك .

الا نسأل الجماهير نشاطا اكثر مما تستطيع ان تبذله . ليكن عملنا تدرجيا ! وليكن ايضا راسخ الاسس ، طويل النفس ، ولكن لنكن على اهبة الاستعداد لاحداث طارئة !

١٦ ـ ان الجماهير الواسعة اللامسيسة هي التي تحدد دوما مصير الثورة . لنسيس اذن الحياة الخاصة ، الحياة العادية في الاماكن العامة والمراقص ودور السينما والاسواق والمخادع والفنادق ومكاتب المراهنات! ان الطاقة الثورية لمتراكمة في الحياة اليومية !

١٧ ـ ليأت تفكيرنا من وجهة نظر اممية ، لا من وجهة نظر قومية (نحن لا نهتم في المانيا بالجبهة الواحدة في فرنسا وفي مقاطعة السار ، او بالثورة الصينية) .

نحن ـ الحزب

١٨ ـ ثمة شكلان من الوعي الطبقي : فوعي الجماهير الطبقي

يختلف عن وعي القيادة (من جانب : حاجات الشبان ، وعلى سبيل المثال الحاجة الى مسكن مستقل ؛ ومقاومة الشغيلة لتدني الاجور ، وتمرد اعضاء « ف . هـ » على تجريدهم من السلاح ؛ ومن الجانب الآخر معرفة اوالية الازمات والتقنية والتخطيط الاشتراكي . ومعرفة التناحرات الامبريالية والسباق العالمي على التسلح . وكذلك التقييم الصحيح والبالغ الدقة لحاجات الجماهير) .

١٩ ـ ليس المشروع او البرنامج هو الذي يحدد القوة السياسية لمنظمة من المنظمات او لحركة من الحركات . وانما الذي يحدد قوتها هذه قاعدتها الجماهيرية ، اي ما يتجاوب فيها مع رغبات الجماهير . لا تستطيع القيادة الثورية اذن ان تسمح لنفسها بالذبذبة والمراوغة على نحو ما فعل غوبلز ، على سبيل المثال . اذ استطاع الافلات من مجزرة ٣٠ حزيران بوقوفه في الجانب «الصحيح» . هو الذي لم تكن تقيد حركته قاعدة جماهيرية .

٢٠ ـ سؤال اساسي : الست مصابا ، انا الثوري ، بعدوى الروح البورجوازية ، الدينية ، التهذيبية ؟ الا تربكني هذه العدوى في عملي الثوري ؟ الست اومن انا الآخر بالسلطة ؟

٢١ ـ لا يجوز للقيادة الثورية ان تعتقد ذاتيا فحسب بأنها تعمل للثورة ، بل ينبغي ايضا ان تعمل لها موضوعيا !

٢٢ ـ ينبغي بذل كل ما في الامكان حتى لا تصحح الاخطاء المنظورة في المستويات الدنيا فحسب ، بل في القمة ايضا .

٢٣ ـ يجب أن يخضع الخط السياسي باستمرار لرقابة القاعدة (النقاش الداخلي) .

٢٤ ـ لا يمكن الاكتفاء بتغيير السياسة بدون الاعلان على ذلك ، او حتى خفية عن الانظار . مما يؤدي في هذه الحال الى زرع اللبس والفوضى . بل يقضي الواجب بتقديم شرح مفصل ودقيق لاعضاء الحزب عن كل تغيير في السياسة ، وباخضاع

الاخطاء المرتكبة لنقد ذاتي حقيقي ، بدلا من القاء تبعتها بصورة ميكانيكية على عاتق المستويات الدنيا («ان مقررات المؤتمر كـذا الحزب لم تطبق على الوجه الصحيح») .

٢٥ ـ ينبغي هنا ان تطرح مشكلة القيادة ، مشكلة تجديد الكوادر المتوسطة والدنيا . ومن لا يتوقع الاحداث ولا يستبقها ، ومن يلهث خلفها ، هو قيادي رديء لن يحرك ساكنا سوى انـه سيمتثل لضغط الجماهير .

٢٦ ـ البحث من الان عن كيفية التحاشي المسبق لاصابـة منظمة ثورية حية بمرض البيروقراطية . لماذا يتحول العامل بسرعة الى متنفذ كلي الوقار حين يرقى الى الكادر ؟ ان خير معيار هـو تبني الاخلاق الجنسيـة في موضوع الزواج وحياة الشبيبة !

٢٧ ـ كيف وبمَ نتعرف الخائن او العميل او المخاتل الذي ما يزال امره رهن المستقبل ، والذي سيقلب ظهر المجن ويغير رأيه في اللحظة الحاسمة ، كيف وبمَ نتعرفه حتى قبل ان يعرف نفسه او يشعر بما يختبىء تحت جلده ؟ (حب الرسميات والدبلوماسية، المرونة في الدفاع عن وجهة نظره الخاصة ، الشطط في الرفقة والالفة ، الاعلان الصاخب عن عواطفه الثورية ، الخ) .

٢٨ ـ كيف السبيل الى التحقق من صفات الثوري الاصيل؟ (بساطة الملبس ، القدرة على الاحتكاك المباشر : موقف طبيعي في المجال الجنسي ، لا ثرثرة ، لا الانتماء العاطفي الى الاشتراكيـة فحسب ، بل ايضا وفي المقام الاول الانتماء الفكري ، عدم سلوك مسلك المتنفذ في الوظائف العليا . لا موقف ابوي تجاه المـرأة والاولاد) .

٢٩ ـ بنية حزب الغد : كيف النخبة لا كمها ! النخبـة (الحزب) + جمهرة الانصار = سهولة التنسيب ، اعادة العمل بفترة التجريب والاختبار قبل قبول العضو في الحزب .

٣٠ ـ من الضروري عدم تحميل المسؤولين ما فوق طاقتهم !

ومن الضروري توفير أوقات فراغ لهم بلا تقييد ! لا التخلي عن الحياة الخاصة ، بل تنظيمها حسن التنظيم ! لنعمل على الدوام على تكوين بدلاء وعلى تامين الاحتياطي الكافي منهم . تجزئة العمل وتوزيعه . اجتماعات قصيرة ولصيقة بالوقائع . تشجيع النقد الفعلي ، وتجنب المماحكات بكل حزم . العمل على الدوام على فهم وجهة نظر الآخر اولا ! تجنب الاعمال التي لا غد لها ، وتحاشي «الحملات» ، والعمل في ابعد عمق ممكن ، بحيث ينفلت العمل من عقاله من تلقاء نفسه .

٣١ ـ لا بطولة غير مجدية ! لا ان نتباهى بالشهادة ، بل ان نوفر قوانا فلا نبددها هباء ! الذهاب الى السجن ليس امرا صعبا ولا مجيدا ، والفن الاعظم هو عدم الذهاب الى السجن ! لا الاعلان عن «التضامن البروليتاري»، بل انتهاج تضامن فعلي (راجع اخطاء «المعونة الحمراء») .

٣٢ـ غالبا ما تربك النزاعات والعلاقات ذات الطابع الشخصي العمل ! لنتعلم كيف نسيّس المسائل الشخصية ، لا ان ننحيها جانبا (على سبيل المثال : المرأة التي تحتجز زوجها غيرة ، او العكس) .

٣٣ ـ ينبغي ان نتعلم كيف نغيّر راينا ، ولكن هذا لا يعني ان نكون بلا قناعات . من الضروري التحقق من ان التعلق بالتنظيم لا يحول دون رؤية الواقع وجها لوجه (ان التنظيم الثوري والتضامن الواعي ضمن اطاره هما اساس العمل الثوري بالنسبة الى الفرد ، ولكن حين يتحول التنظيم لاشعوريا الى بديل للبيت والاسرة ، فقد يشوش رؤية الواقع) .

٣٤ ـ الحرص على الدوام على احاطة المشكلات الداخلية بالعلانية التامة (هذا لا ينطبق بالطبع الا على الحزب الشرعي) . السياسة السرية داخل الحزب ضارة . من يخف رايه ، فليس

منا . كذلك حال من يضع قضية الثورة في خدمة التكتيك، وليس العكس .

٣٥ ـ تطوير مبادهتنا الذاتية لا يعني شيئًا سوى رؤيـــة الحياة بدون كمامات عيون ، واستخلاص النتائج المترتبة على ذلك.

فهرست

هذا الكتاب

ينطلق رايش من مبدأ تميز الوعي الطبقـي للقادة عن الحس الطبقي للجماهير لكي يرسي بعض اسس لما اسماه بعلم نفس الجماهير : علـم نفس تكـون الجماهير ذاته لا موضوعه ، ويحـول دون السقوط في الشيخوخة السياسية ، عرقوب آخيل كل حركـة ثوريـة .

ويعزو رايش احـد الاسباب الاساسيـة لفشل الحركة الاشتراكية في اوروبا الى عدم وجـود علم نفس سياسي ماركسي قابل للاستخدام ، ويرى ان هذه الثغرة كانت بمثابة ميزة كبيرة للعدو الطبقي ، كما كانت اقوى سلاح بيد الفاشية .

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

الثمن : ٥٥٠ ق. ل.
أو ما يعادلها